عاليا

* الكتاب: عاليا (روايـــــــــة)
* الكاتبة: أمل المنشاوي
* مراجعة لغوية: عمار الشريعي
* تصميم الغلاف: صابرين عبدالهادي
* إخراج داخلي: سليل الفراعنة
* رقم الإيداع: 2075/ 2022
* الترقيم الدولي: 978-977-6875-93-7

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

صدر عن دار المثقف للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع

دار المنتدى للنشر و التوزيع
المثقف للنشر والتوزيع

9 789776 875937

(روايـــــة)

عاليا

أمل المنشاوي

صدر عن دار المثقف للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع

إهداء

إلـىٰ الحلـم المتـواري خلـف ظـلال الخوف؛ يطل بوجه وجل ثم يغيب.

إلىٰ الأمـل المُصـفد بـأغلال الواقـع، فـإذا حطم قيدا أنبت حرفا.

إلىٰ الروح التائهة بين الإرادة والعجز حتىٰ إذا ما أبصرتْ اهتدتْ.

إليكم أكتب فأستمد قوتي.

أمل

مقدمة

فتاة من زمن آخر

باديً ذي بدء تهنئتي القلبية للروائية «أمل المنشاوي» علىٰ هكذا عمل إبداعي، ولولا يقيني أن «رواية عاليا» هي الإصدار الأول للأديبة لما صدقت أنه كذلك، وذلك للحنكة والحس الروائي المتبدي بجلاء، بدءًا من الاستهلال وحتىٰ نهاية الرواية، فما قرأته وجرت عليه عينيّ وتسلل متدفقًا بمشاعره الإنسانية إلىٰ حنايا وجداني يستصعب علىٰ عقلي الاقتناع بأنه عمل إبداعي لمبتدئ، بل هو إبداع مكتمل الأركان، وليس عملًا يمكن للقارئ أن يصنفه كعمل أول بحالٍ من الأحوال.

«عاليا»..

رواية إنسانية بكل ما تحمله الكلمة من معان، رواية حَوَتْ بين ضفتيها أنهارًا تتدفق في شاعرية وشجن، أنهار ماؤها دموع وموجها بين ضحكة فرحٍ وبكاء قلب وسريانه مشوار حياة وإن لم يبلغ مصبه، طريق خالطته الدموع والضحكات وامتزجت فيه الفرحة مع الحزن.

رواية أبطالها نماذج إنسانية تتماهىٰ مع كثيرين يعيشون معنا في واقعنا بأحلامهم وإحباطاتهم، بسرورهم وتعاستهم، عثرات ونهوض، أشخاص متخيَّلون ولكنهم في ذهنية القارئ لهم حضورهم المتميز، ولن يجد القارئ -أي قارئ- صعوبة تذكر في تشابههم مع محيطين به

مـن أصـدقاء أو ذوي قربـىٰ أو حتـىٰ زمـلاء وزمـيلات عمـل، وإن لـم يصـادفهم في واقعـه المعـاش فـلا ريـب أنـه سـمع عـنهم في حكايـات مسامرين أو قرأ عنهم فيما يتداول من أخبار.

رواية تتعدد فيها الشخصيات وتتناوب عليهم الأحـداث كقطـع «بازلـت» منفصـلة أو جـزر منعزلـة، لتـأتي الكاتبـة وتجمعهـم بتناسـق مدهش لتشكل لنا في النهايـة فُسَيْفِسَـاء متعـددة الألـوان تسـر النـاظرين فيتلألأ بريق أحجارها متناغمًا مع شجن دموعها المراقة علىٰ سطحها الأخَّاذ، بل والنازفة من عمق أوجاعها.

يا الله! أي مهارة تلك؟! إني لأقف مندهشًا ومنبهرًا -وكم وقفـت منبهرًا ومندهشًا- ببساطة الأسلوب السردي ودقة الكلمات في معناهـا ومدلولها وكم المشاعر المتدفقة بين ثنايـا السـطور مـن قلـوبٍ تعـاني، ومن قلوبٍ تبتهج سعادة، ومن قلـوبٍ مـترددة بـين شـكٍّ ويقـين، ومـن قلوبٍ سادها سواد الحسد أيضًا وأعمتها نيران الحقد وأفسدتها الغيرة.

«عاليا» رواية مكتملة الأركان، عنكبوتية الحبكة، تتعدد خيوطهـا بين رئيس وثانوي قد تبدو للوهلة الأولىٰ منفصلة، إلا أنهـا في حقيقتهـا متشابكة ومتصلة مترابطة الوشائج، لخصتها الكاتبـة المبدعـة في كلمـة واحـدة، «عاليـا»، كلمـة واحـدة اختصـرت فيهـا كـل شـيء، الحـزن والفرح، والضحكات والدموع، والإقدام والتردد، والإحباط والأمل.

«عاليا» شخصية محورية تجاذبتها الدنيا بحلوها ومرهـا، ببراءتهـا وأحقادها، بين شدٍّ وجذب لانت مرات وتمردت مرات.

«عاليا»! إنها الدنيا كما نعرفها أو كما يجب أن نعرفها، إذا أقبلت أدبرت وإذا أضحكت أبكت، وإذا حلَّت أوحلت.

«عاليا» إنسانة واضحة عادية، قد تكون أختي أو أختك أو ابنتي أو ابنتك، أو صديقة وزميلة عمل، شخصية إنسانية في تسامحها وفي ترددها وفي طموحاتها وآمالها وأحلامها، وفي غضبها أيضا، لم ترتدي قناعًا في زمنٍ تعددت فيه الأقنعة البشرية، إنها حقًّا وبصدق فتاة من عالم آخر.

محمد البنا ١٣ نوفمبر ٢٠٢١

الفصل الأول

علىٰ وجه الزمان ترسمنا الأقدار حكاية تلو أخرىٰ، بعضها يزينها الفرح وكثير منها يكسوها العذاب.

حكايتي أنا من بين تلك الحكايات، ضنّ الزمان عليّ بكثيرٍ مما جاد به علىٰ آخرين، وكأنما يتفنن في حرماني...

عذرًا؛ لا أريد أن أسرد عليكم بكائيات تستجلب تعاطفكم، ولا أريد تعاطفكم المزيف هذا، بل لا أريد تسامحكم، أريدكم أن تظلوا علىٰ ما أنتم عليه من كره وقسوة، لا أريد أن أرىٰ في أعينكم القاسية نظرة إشفاق، فالشفقة إحساسٌ جيد، وروحٌ حلوة لا تتناسب مع قسوتكم، تظنون أنني انتظر منكم أن ترسموا نظرات الأسىٰ وتعضون علىٰ شفاهكم حزنًا عليّ! لا، لا تأسوا فلست بحاجة إلىٰ أسىٰ، فأنا لا آسىٰ علىٰ نفسي، وإنما فقط أردت أن أنصب محاكمة، محاكمة لنفسي هي في الحقيقة محاكمةً لكم!

ما لكم تنظرون إليَّ هكذا وكأنكم تنعتونني بالكاذبة؟! أيسركم أن أقول إنني أكذب؟! لا بأس، أنا أكذب! لأنني حقًّا أريد عطفكم، أريد حبكم! فما كانت معضلتي في الحياة كلها إلا إن أحدًا لم يأس

لأجلي، لم تذرف عيناه بدمعة إشفاق عليّ، لم تربت يده ذات يومٍ علىٰ ظهري لتطمئنني أنها معي، وإنما توالت علىٰ وجهي الصفعات صفعة تلو أخرىٰ، من قريبٍ وصديقٍ وحبيب! آه... كم هو مؤلم ما أشعر به الآن! لكنه ألم اعتدت عليه، بل إنني استعذبته في قرارة نفسي، استمتعت بوخزاته الدامية لروحي، لا، أنا لا أريد ذلك، لا أريد بكاء أحد منكم علىٰ جرحي الغائر الذي هو من صنع أيديكم، أحدثتموه في شغاف قلبي وتركتموه ينزف وينزف وينزف! حتىٰ فاضت منه الحياة وتسربت، ما عاد يعنيني إن كان هذا القلب لونه أبيض أو أحمر أو حتىٰ أسود، وإن كان الأسود يروقني، فيروقني دائمًا أن أتذكر قسوتكم وظلمكم، يروقني أن يتمزق قلبي كمدًا، ويتهدج صوتي وترتعد فرائصي خوفًا منكم، يروقني أن يحتقن الدم في عروقي غضبًا عليكم، يروقني أن... أن أكرهكم! نعم، أكرهكم أكثر مما كرهتموني.

أيزعجكم ما أقول؟! لا بأس، دعونا من الكلام عن مشاعري تجاهكم ومشاعركم تجاهي، ودعوني أذكر لكم ما حدث في تلك الليلة، تلك الليلة التي هيّجت في صدري كل مشاعر الأسىٰ والألم، ليلة لن أنساها، ففيها ضحكت لي الدنيا لأول مرة في حياتي، ضحكت لي فأبكتني وذكرتني بما مضىٰ.

كانت الساعة تشير إلىٰ التاسعة والنصف مساء، عندما فضضت تلك الرسالة الغريبة التي سلمني إياها جارنا الذي لم ألتقه منذ أن

أتيت للسكن في هذه البناية إلا مراتٍ قليلة، كنت أقف أمام بائع الجرائد في الحي الذي نسكن فيه، أقلّب في بعض الصحف التي تروقني حين أتاني هو مسلِّما ثم مد لي يده برسالة كانت في جيبه، أخرجها عندما اقترب مني، أتبعها بابتسامة لم يبررها بكلام، والغريب أني لم أسأله ما هذه ولمن تكون؟ تسلمتها منه كما لو كنت أعلم بأمرها مسبقًا وأعلم أنها لي، ابتسم مجدَّدًا عندما اطمأن أنها أصبحت بحوزتي، ثم أومأ برأسه وانصرف.

أي بلاهةٍ تلك التي أصابتني؟! أتسلم رسالة في قارعة الطريق، وعلىٰ رؤوس الأشهاد، من رجلٍ لا أعرفه لمجرد أنه يسكن في نفس الحي، وفي نفس العقار الذي أسكُن فيه!

قلّبتها في يدي عدة مرات وبعدما هممت بفضها تراجعت، لا أدري لماذا! ثم وضعتها في حقيبة يدي بغير اكتراث، أخرجت بضع نقود، نقدتُها بائع الجرائد نظير مجلتي المفضلة، فبرغم انتشار المجلات الإلكترونية إلا إنني لا زلت متمسكة بعادتي القديمة، لم أكن محبة للقراءة من قبل، لكن هذه المجلة أعجبتني لارتباطي بصِحَافيٍّ يكتب فيها، لا، لا، لم يكن ارتباطًا عاطفيا كالذي تعرفون، وإنما هو ارتباط معنوي، لا أعلم له سببًا إلا إنني عندما رأيت صورته وقد زين بها رأس مقالته، شعرت أنّ شيئًا ما يجذبني إليه، كان ذلك منذ عشرين عامًا، كنت في الخامسة عشرة، عندما وجدت خالي يطالعها، لم يكن يقرأ، وإنما كان يتصفح الجزء المخصص للفن،

والـذي هـو كعـادة جميـع الجرائـد والمجـلات يكـون مكتظًـا بصـور الفنانات، خاصةً تلك الصور الساخنة التي تتفنن فيها كل واحدة منهن أن تبرز مفاتنها، وبعد أن انتهىٰ منها وضعها علىٰ المنضدة وذهب، فعلت كما يفعل، وأخذت أتصفحها، وقعت عيني علىٰ صفحة معنونة ببريد القراء، قرأت الرسالة التي كتبتها صاحبتها بمداد دموعها، كانت تشبهني حينها، تأثرت بقصة حبها العقيمة، مقطوعة الأمل، وتذكرت قصة حبي لـ «حسين» بَدَّالٌ علىٰ ناصية حارتنا حيث كنت أعيش مع جدتي لأمي، كان فتًىٰ وسيمًا مفتولَ العضلات، يختال بوسامته ورجولته علىٰ أقرانه من الشباب، كان متجره ملتقىٰ شباب الحارة، والذي كان بدوره يجذب الفتيات، جميع فتيات الحارة، بل الحي بأكمله، إلا أنا!

كنت أراقبه في صمت من شرفة غرفتي المطلة عليه مباشرة، تأكل الغيرة قلبي عندما أراه يمازح إحداهن أو يلاطفها، كنت أبكي وأحترق من شدة الغيرة، وإذا لاحت منه التفاتة نحو نافذتي المشرعة دائمًا يرقص قلبي فرحًا وطربًا لظني أنه يرسل لي نظرة مفادها «إني أذكرك»، أواه! ياللسعادة! قلبي عندما كانت تحين منه التفاتة وأنا أمرّ أمامه فتلتقي عينانا، كنت أذوب كما يذوب السكر في الفم، أشعر أنّ قدميّ قد ارتفعتا عن الأرض ونَبَتَ لي جناحان وصرت أطير، أطير بلا هدف، أحلق بعيدًا، لا يعيدني إلىٰ حيث أنا إلا آلات تنبيه السيارات التي تصرخ في وجهي أن أفيقي!

ذات مرة وأنا أهيم بعالمي المجنون مع حبيبي الذي لا يعرف هو أنه حبيبي! وقد مر أسبوعان لم أره خلالهما ولا أعرف أحدًا كي أسأله عنه ليخبرني أين هو، تخيلت كل شيءٍ سيئٍ ممكن أن يحدث لإنسان اختفىٰ فجأة عن الأنظار، تخيلته مريضًا يعاني في فراشه من الحمىٰ، أو ربما من حادث أليم ألمّ به، وكلما خطر ببالي ذلك بكيت وانتحبت، ثم يراودني شيطاني ويقول لي إنه ربما تزوج، تزوج! كيف ذلك؟ هل يتزوج المرء فجأة دون تجهيزات، وهل من يتزوج يبتعد عن بيت عائلته كل هذه المدة؟ ثم أخاله وهو يلهو مع عروسه التي لا أعرف من تكون، فكنت أتخيلها دميمة، كئيبة، ماكرة! وأخاله حزينًا، شاردًا، نادمًا، يلوم نفسه كل يوم علىٰ تعجله بتلك الزيجة البائسة، ثم أخاله يتذكرني ويتذكر انتظاري له في الشرفة غير آبهةً بالبرد في ليل الشتاء الطويل فأراه يبتسم، ويحدث نفسه: «لماذا لم أخبرها بحبي؟».

أظل علىٰ هذا الحال في كل ليلة تتقاذفني الأفكار، حتىٰ علمت ذات يوم أنه قد استدعي من قبل القوات المسلحة، وهذا الأمر يحدث كثيرًا مع كل من أدىٰ الخدمة العسكرية ما دام لم يتعد عمره الثلاثين، سمعت أمه تخبر جارتها بهذا وأنا أمرّ أمامها ذات مساء، تذكرت كل ذلك وأنا افتح مجلتي علىٰ الصفحة المحببة، كأنما أطمئن نفسي أنّ كاتبي المفضل، لم يخلف موعده معي مرة منذ أن عرفته، انتبهت من شرودي عندما توقفت أمامي سيارة أجرة، ركبتها متوجهة إلىٰ أقرب محطة للمترو، ومن ثم أستقله إلىٰ مكان عملي، عفوًا، لقد نسيت أن أخبركم ما اسمي وماذا أعمل! لكن لا بأس، فاسمي لم يكن ذا شأن في

الحياة يومًا ما حتىٰ يهتم أحد بمعرفته، ولم أكن من أصحاب الأعمال الخارقة أو رفيعة المقام حتىٰ تذهلون عندما تعرفونه، لقد كنت منذ الصغر لا شيء، رغم محاولاتي المستميتة أن أجعل من نفسي كائنًا يُرىٰ بالعين المجردة، ولكن لم أفلح، لقد فرضتْ بعوضة حقيرة لنفسها وجودًا في حياة البشر، وجعلتهم يفكرون في وسيلة يتخلصون بها من أذاها! معذرة، فلقد خرجت رغمًا عني عن موضوع الرسالة، فلنعد إذًن إلىٰ الفتىٰ المنمق صاحب الرسالة، في الحقيقة لم أكن أعرفه حق المعرفة؛ كانت هذه هي المرة الأولىٰ التي ألتقيه عن قرب وأعرف ملامح وجهه بوضوح. وسيم هو بصورة ملفتة، بصورة كانت لتجعلني في السابق أهيم به وأتمنىٰ منه ولو نظرة من بعيد! لكنني أحمد الله أنني لم ألتقه إلا في هذه السن، فلقد كنت في صغري مولعة بالرجل الوسيم! زحف شعر رأسه إلىٰ الوراء مخلفًا جبهة عريضة لامعة، كانت ذات يوم بيضاء لكن حرارة الشمس صبغتها ببعض سمرة محببة إلىٰ النفس.

قلت لكم إنه كان باسمًا عندما سلمني الرسالة، اكتفىٰ بابتسامته معبرًا بها عن مودةٍ شديدة، لم ينطق بكلمة واحدة، بل إنه لم يبد أية رغبة في تبادل أي كلام، كان ملفتًا للنظر بقدرٍ كبير، ثيابه المهندمة رغم بساطتها، لحيته المرتبة ذات الشعر البني مثل شعر رأسه، والتي ذكرتني بكاتبي المفضل، وذكرتني أيضًا بـ «حسين» حبي الأول، لم تأخذ ملامحه حيزًا كبيرًا من ذاكرتي، إذ إني نسيتها بمجرد اندماجي في

العمل، حتىٰ إنني بذلت جهدًا لتذكرها وأنا أقرأ رسالته، عندما دقت الساعة التاسعة مساء تذكرت الرسالة، فأنا دائما أتذكر الأشياء في هذا التوقيت! لا أعلم ما السر في ذلك، لكن ثمة ارتباط خفي بينها وبين ذاك الحزن الممزوج بالأمل الذي يجتاحني حينها، فالتاسعة تذكرني بأمور متناقضة، بعضها مبهجٌ سعيد، وكثيرٌ منها مؤلمٌ وحزين.

ففي التاسعة كانت تبدأ نوبة «حسين» في إدارة المتجر حتىٰ الصباح، وكنت بالطبع أسهر معه أرقبه من بعيد، وأطمئن عليه، والتاسعة كانت الوقت المحدد لعودتي إلىٰ المنزل إذا سوّلت لي نفسي ذات يوم أن أقضي وقتًا مع أصدقائي، بعيدًا عن تحكمات الأهل.

العجيب أنني كنت دائمًا أتجاهل هذا الأمر، ولا أعود إلا بعد التاسعة أو بعد العاشرة، وأحيانا كنت أتمادىٰ ولا أرجع إلا وقد اقتربت الساعة من منتصف الليل، وكنت أعاقب عقابًا شديدًا، عقابٌ يردع أي إنسان إلا أنا! فكنت كلما تمادوا في إذلالي تماديت في عنادي وتمردي، فما ارتدعت يومًا، وما كفوا هم عن معاقبتي، وكنت أتساءل، تُرىٰ لو أنهم لم يضعوا قوانينهم تلك أكنت تعديتها؟ لا أدري، ولكني كنت دائمًا أتعمد تجاوز حدودهم وقوانينهم، فإذا طلبوا مني الهدوء والوقار يزداد جنوني وهياجي، وإذا طلبوا مني الكلام صمتُّ، وإذا أمروني بالسكوت تكلمت! كنت أعاقبهم بطريقتي، وأخبرهم في كل يوم أنني أرفض تسلطهم وتَجَبُّرُهُمْ علىٰ ضعفي، لكنهم لم يفهموا يومًا، بل يزدادون تسلطًا وأزداد أنا عنادًا وتمردًا.

كانت التاسعة تثير بداخلي القلق، فتمردي هو تمردٌ ممزوجٌ بالخوف والقلق، تمرد يتمنىٰ في قرارة نفسه الانصياع، لكنه يأبىٰ!

تدثرت في لحافي استعدادًا للنوم، بالطبع لا أنام مبكرًا هكذا لكنني كنت مصابة ببوادر نزلة برد، فتناولت قرصًا مضادًا وشربت مشروبًا دافئًا ونويت النوم، لكني تذكرت الرسالة، فنهضت من فوري وأخرجتها من حقيبتي، كانت مخبأة داخل مظروف أبيض اللون، مطبوعٌ علىٰ أحد جوانبه باقة ورد ذات ألوان رقيقة، وكان الظرف محكم الغلق مما اضطرني إلىٰ تمزيقه من أحد جوانبه لأخرجها، كُتبت الرسالة علىٰ ورقة مزركشة برسومات رقيقة علىٰ أحد أوجهها، بينما كان الوجه الآخر أبيض بلا خطوط، مثل أوراق الرسائل الغرامية التي اعتدنا عليها قبل انتشار الهواتف النقالة وانتشار التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي.

أعجبتني الرسالة والرسوم بداخلها، والتي كانت عبارة عن قلوبٍ بأحجامٍ مختلفة، وملونة ألوانًا زاهيةً، منثورة علىٰ جوانب الورقة بطريقة جذابة، لقد كانت الرسالة قصيرة ومقتضبة إذ قال فيها:

«عزيزتي..

بعد التحية..

اسمي أحمد، أعلم أنك لا تعرفينني، ولكني أعرفك، أعرفك منذ أيام حارة مالك، أتذكرينها؟ أنا معجبٌ بك إلى الحد الذي جعلني أفكر بجدية في الارتباط بك، فما قولك؟

ملحوظة..

رجاءً، الرد يكون برسالة مماثلة.».

أحمد.

كانت هذه رسالته، قرأتها عدة مرات لعلي أفهم ما بها، لـم أفهـم رغم وضوح العبارات وسهولتها، لا لشيءٍ إلا أنني كنت شاردة الذهن في مكـان آخـر، مـا اضـطرني إلىٰ إعـادة القـراءة ثـلاث مـرات أخـرىٰ! انتهيت من القراءة للمرة الثالثة، ثم ابتسمت ابتسامة سـاخرة، مـا لبثـت أن تحولت إلىٰ حالة مـن الغضـب والحنق، وقـد يكـون خـوف وقلـق، قبضـتُ الورقـة، وألقيتهـا وأنـا أقـول بغضـب تافـه: «أسـلوب قـديم في المعاكسـة!»، وخاصـمني النـوم ليلتهـا، خاصـمني إلـىٰ الحـد الـذي جعلني أبكي، وأطلـب مـن الله أن يجعلنـي أنـام كـي أرتـاح مـن القلـق، أخذت أتقلب في فراشي، والأفكار تأكـل رأسـي، لمـاذا كلمـا انشـغلت ونسيت يـأتي مـن يـذكرني؟! ألـن يغفـر الله لـي ذاك الـذنب الـذي قـض مضجعي؟! لماذا يا رب ينالني كل هذا العقـاب وأنـا المظلـوم ولسـت الظالم؟! أحقًّا أنا المظلوم؟! من ذا الـذي ينصـفني ويخـبرني؟ أأنـا مـن اجتررت علىٰ نفسي الظلم أم جلبه إليّ آخرون؟ رباه! ماذا لو قصصت عليكم قصتي، أمصدقيّ أنتم؟ أم أنا عندكم من الكاذبين؟

كان أول يوم لي في المدرسة، كنت خائفة؛ هذه هي المرة الأولىٰ التـي أفـارق فيهـا أمـي، بكيـت بـلا صـوت، ظلـت دمـوعي تسـيل علـىٰ خـدي وأنـا أودعهـا علـىٰ بـاب المدرسـة، كمهجّـر قسـرًا يـودع أرض الوطن.

هكذا أنا، طبعي الهدوء مهما حاولت مـن اصـطناع الجنـون، وفي الفصل علمت أنّ الحياة أكبر من حدود البيت، الذي لم أكن أفارقه إلا

نادرا، كثر الأقران من حولي، كان عليّ أن أختار لي من بينهم صديقة، ولكن كيف؟ لست من ذلك النوع الذي يبادر ويختار، لست ممن يجيدون أخذ القرار، دائمًا أكون مفعولًا به في جملة فعلية، أو اسم مجرور في جملة خبرية!

انتظرت حتىٰ تختارني إحداهن، فاختارتني هي، اسمها جميلة، وكانت جميلة، هكذا كان يراها الجميع، إلا أنا، جمعنا مقعدٌ واحد، كانت ضحوكة، مشاغبة، أحبها الجميع، إلا أنا! فليس من طبعي أن أندمج مع الآخرين بسهولة، لذا اتخذت موقفًا مضادًا تجاهها، رغم محاولاتها المستمرة لاستمالتي نحوها.

مع الوقت شعرت أنها تشبهني، لكنها كانت النسخة الضاحكة الجريئة مني، أصبحنا كتوأم، اتحدنا في كل شيء، طريقة لبسنا، قصة شعرنا، كلامنا، ضحكنا، لم يفصلنا عن بعضنا إلا وقت النوم، وأحيانًا كنا نصطنع الحجج فتبيت إحدانا لدىٰ الأخرىٰ.

- اسمي عاليا.

هكذا أجبتها بنبرة محتدة ومتعالية، ونظرة نافرة، لكنها لم تغضب، بل إنها ازدادت تعلقًا بي وتوددًا إليَّ.

قالت بمرح وهي تجذبني

- أسرعي كي نلحق الصف الأول.

لم أقاومها، جريت معها بمشاعر باردة، سبقنا الجميع، وتخيّرت هي مقعدًا في أول الصف بجوار الباب.

- تجلسين بالداخل أم بالخارج؟

قالت وهي ترتب وضع الدرج والمقعد، فقلت لها:

- سأجلس بالداخل.

ابتسمت وقالت:

- موافقة.

وقبل أن أدخل استوقفتني، واستبدلت بمقعدها مقعدي، وقالت:

- هذا مريحٌ لك أكثر، وأنا سأغير هذا المقعد، فيه مسمارٌ قد يمزق ملابسنا.

تعجبت من تصرفها ولكني استحسنته، خرجت بمقعدها ثم عادت بآخر، نظرت فإذا به أجدد من مقعدي، لاحظتْ نظرتي فبادلتني وأعطتني الجديد، وأنا لم أرفض، ولم أشكر حتىٰ فعلها، كما لو كان ذلك فرضًا عليها.

في نهاية اليوم كنت قلقة جدًّا، أترقّب جرس الانصراف، وكان طبعي عندما أقلق أن أظل واقفة، لا يرتاح لي بدن.

أما المعلمة في الحصة الاخيرة فقد كانت لطيفة ومرحة، وكانت لم تزل محتفظة بنشاطها، رغم اقتراب اليوم من نهايته ورغم خمولنا وطاقتنا المستنزفة ما بين الدروس واللعب، إلا أنّ نشاطها حمّس الجميع، فكان الأولاد جميعهم يقفون مثلي ولكن وقوفهم كان تحمسًا للإجابة علىٰ أسئلتها المتلاحقة،

الجميـع يتنافسـون لكسـب ثقتهـا، وهـي تـوزع ابتسـاماتها ونظراتهـا الودودة علىٰ الجميع.

وجميلة تنافس مع من ينافسون علىٰ اكتساب ود المعلمة، أما أنا فيشارك ظاهري، بينما باطني مشغول بلقاء أمي.

وبين الحين والآخر أسترق النظر نحو النافذة المقابلة والمطلة علىٰ الشارع، لعلّي أرىٰ أمي واقفةً في انتظاري، كنت علىٰ يقينٍ أنها تنتظرني؛ من لها غيري كي تهتم به! ومن لي غيرها كي يهتم بي!

دق الجرس، وصاح الاطفال بصوتٍ واحد: «هيييييييه».

برغم حالة الانسجام التي بيننا وبين المعلمة إلا إنّ ساعة العودة إلىٰ البيت لها مذاقٌ آخر.

ابتسـمت المعلمـة رغمًـا عنهـا، وبـدأت تلملـم أغراضـها، وهـي تعدنا أن نكمل في وقت لاحق، ولكن صوتها ضاع في صخب الأطفال الذين دبّت بينهم الفوضىٰ، ولم يأبهوا لما تقول فما كان منها إلا أن اتسعت ابتسامتها بحنان بالغ وانصرفت ونحن خلفها.

وكنت مستعدة للخروج من قبل ذلك، فقد لملمت أغراضي، ولم أنس شيئًا كما علمتني أمي، فأنا فتاة مطيعة؛ أسمع كلامها وأنفذ ما توصيني به دون أن أحيد عنه قيد أنملة، فأنا أحبها وأحب أن أسمع كلامها.

تمنيـت لـو أقفـز مـن النافـذة فأصـل سـريعًا، ولكـن كـان علـيَّ الانتظار، حتىٰ تنتهي جميلة مـن جمـع أغراضـها، لـيس لأنني أريـد أن

نذهب معًا، ولكن لأنها تحبسني بالداخل، وكان هذا خطأي الذي لم أنتبه إليه إلا في تلك اللحظة، فقلت لها بلهجةٍ آمرة:

- غدًا سنبدل الأماكن، ستجلسين أنت بالداخل وسأجلس أنا علىٰ الطرف.

قالت باستسلام:

- كما تريدين.

انتهت، وخرجنا معًا، كنت أسبقها ببضع خطوات فأنا أطول منها، وخطواتي واسعة، وكانت هي تهرول خلفي كي تلحق بي، تثرثر بكلام كثير لم أفهم منه شيئا لأنني كنت مشغولة بلقاء أمي التي أخاف أن تملَّ من الانتظار فترحل.

تساءلت بيني وبين نفسي، هل من الممكن أن تتركني أمي وترحل؟! وإذا فعلتْ فكيف يكون هذا الرحيل؟! ماذا لو ماتت أمي؟! إلىٰ أين سأذهب؟ ومع من سأعيش؟! وهل سيضمني حضنٌ كحضنها؟ صرت أفكر في أحضان النساء من حولي فلم أجد حضنًا كحضنها، اللهم إلا حضن جدتي، ولكني لا أسكن فيه طويلًا فسرعان ما أتملص من حضنها وقبلاتها، وملمس جلدها المترهل البارد دائما، لا أدري لماذا جلدها بارد دائمًا ولا يشع حرارة كالتي تشعها أمي حين تحتضنني وتقبلني، ظلت الأفكار تأكل رأسي أكلًا، حتىٰ وصلت إلىٰ باب الخروج، ورأيتها، فضاع الخوف، وعاد اليّ الأمان ثانيةً وأنا بين أحضانها، كأنما فارقتها دهرًا، ثم رجعت وكلي لهفة وشوق.

لـم أنتبـه إلـىٰ «جميلـة» الواقفـة بجـواري كأنمـا تنتظـر دورهـا في حضنٍ مماثل، ولكن أمي انتبهت إليها فحيتها بابتسامة وسألتني:

- هذه صديقتك يا عاليا؟

أجابت هي قبـل أن أجيـب أنـا، وهـي مـادةٌ يـدها إلـىٰ أمـي تسـلم عليها بجرأة غير متوقعة من طفلة في السادسة من عمرها:

- نعم يا سيدتي، اسمي «جميلة» وأجلس أنا وعاليا علىٰ طاولـةٍ واحدة.

أعجبت بها أمي كثيرًا وقبَّلتها في وجنتها ثـم سـألتها إن كـان هنـاك من ينتظرها، فأجابت:

- لا يا سيدتي، لست بحاجة إلىٰ أن يأتي أحـدٌ كـي يتسـلمني فأنـا أعرف الطريق جيدًا.

ضحكت أمي لكلامها وقالت:

- بيتكم قريبٌ إذًا؟

قالت:

- نعم -ثم أشارت إلىٰ نهاية الشارع- إنه هناك.

قالت أمي:

- إذًا نصحبك معنا إلىٰ بيتك ثـم نكمـل نحـن، فبيتنا في الشـارع الذي يليه مباشرةً.

وافقت جميلة بسعادة، بينما يأكلني الغيظ فهي أول من تشاركني اهتمام أمي وإعجابها.

وصلنا حيث تسكن فأشارت نحو بناية عالية من ستة طوابق، وقالت:

- أنا أسكن هنا.

ثم لوحت لسيدة تقف في شرفة بالدور الثالث، وقالت:

- هذه أمي.

فأشارت أمي نحو السيدة لتحييها فأتانا صوتها من بعيد، يدعونا للصعود مع جميلة، فشكرتها أمي واعتذرت منها، رفعت جميلة صوتها وهي تخبر أمها أنها ستذهب معنا، لتتعرف على مكان بيتنا، فما كان من أمها إلا أن وافقت مع تحذيرها ألا تتأخر، كي لا تغضب أباها القادم من عمله بعد قليل، وتحذرها أنه سيعاقبها إن أتى ولم يجدها.

كنت مذهولة من تلك البساطة التي تتعامل أم جميلة بها مع ابنتها، ومن تلك الطمأنينة التي ملأت قلبها، حين تركتها مع سيدةٍ لا تعرفها، لمجرد أنّ مظهرها مريح، ويشي ببعض ترف!

مشينا معًا، وكانت حركاتها رشيقة، وحديثها مع أمي لم ينقطع، كانت تتكلم في كل شيء وعن أي شيء، وأمي مبهورةٌ بها وبطلاقتها!

عندما وصلنا عرضت عليها أمي أن تصعد معنا لكنها رفضت متعللة بخوفها من غضب أبيها، فعذرتها أمي فودعتنا بقبلة لي ولأمي، ثم انصرفت.

في البيت حكيت لأمي كل شيء حدث معي في المدرسة ولكني لم أذكر جميلة، فتعجبت أمي لماذا لا أحكي عنها، رغم أنها رفيقتي! أنا أيضًا لم أعرف لماذا لم أحك عنها!

الفصل الثاني

انتبهت من أفكاري علىٰ صوت إشعارات متتالية علىٰ تطبيق «واتس آب»، ففتحت الهاتف، وألقيت نظرة سريعة، فإذا به حديث مطول بين الأمهات في مجموعة أولياء الأمور، أو كما يسمونها باللغة الحديثة «جروب الماميز».

بدا الحديث حادًّا كما لو كان شجارًا بين اثنتين منهن، ولكن حالتي لم تكن تسمح بمتابعة النقاش فأغلقت الهاتف ثانية وفصلت عنه الإنترنت، وشددت عليَّ لحافي، ورحت في نوم عميق.

في الصباح استيقظت علىٰ اتصالات متتالية من زميلة لي في المدرسة تستحثني فيها علىٰ الحضور سريعًا، اكتشفت بعد أن أغلقت معها أنني تأخرت عن موعدي نصف ساعة كاملة لأول مرة منذ استلامي العمل في هذه المدرسة.

كان الطبيعي في مثل هذا الظرف أن أعود إلىٰ النوم ثانية وليذهب العمل إلىٰ الجحيم، ولكن زميلتي قد حذرتني من التغيب في هذا اليوم بالذات، فهناك أمرٌ جلل قد وقع، ويجب عليَّ الحضور بصفتي

الاختصاصية الاجتماعية الوحيدة المسؤولة عن المرحلة الابتدائية في هذه المدرسة.

كنت منزعجة انزعاجًا غير مبرر، فلم يكن صباحي هذا صباحا عاديا كأيامي السابقة، بل كان حزينًا متألما، لوهلة ظننت أنني لا أعرف سبب الحزن، ولكن عندما وقع بصري علىٰ تلك الورقة، الملقاة علىٰ أرض الغرفة تذكرت.

حاولت أن أسترجع أحلامي في هذه الليلة والتي كانت أحداثها تأتي كوميض يضيء في عقلي، وسرعان ما يختفي، وكلما أضاء أشعر بوخز في صدري وألمٍ يهيج حنينًا أو خوفًا، كانت أحلامي متعلقة بالورقة الملقاة فتناولتها وفردتها بين يديّ وقرأتها ثانية ثم طويتها ووضعتها بين ملابسي في خزانتي الصغيرة.

ألقيت نظرة علىٰ وجهي الشاحب، في المرآة المعلقة في «درفة دولابي» وتنهدت بحزن، ثم توجهت إلىٰ الحمام لأستعد للخروج.

المدرسة هادئة وليس ثمة حركة غير عادية، لم ينتبه أحد لتأخري فالجميع مشغولون كل في عمله، فمديرتنا صارمة ولا تتهاون في العمل.

مع أول خطوة لي في حجرة مكتبي، كانت «دادة سعدية» في إثري تطلبني للذهاب إلىٰ مكتب المديرة التي تنتظرني منذ ساعة.

ذهبت وما إن دخلت حتىٰ لمحت في نظرة المديرة وعيدًا مبطنًا، لكنها لم تتفوه بأي لوم أو تأنيب، أما الحاضرات فكانتا امرأتين تبدوان

علىٰ قدرٍ عالٍ من التعليم ومن المستوىٰ الاجتماعي المرموق، ولِمَ لا وجميع طلاب مدرستنا من أبناء الطبقة الراقية، ومن غيرهم يعمّرون المدارس الخاصة و«الإنترناشيونال»، نعم، فأنا أعمل في مدرسة من تلك المدارس التي تستقبل أبناء الأجانب وعلية القوم، لم يكن سهلًا الحصول علىٰ عمل كهذا، ولكني بذلت من أجله الكثير، ولا أنكر أنّ الحظ ابتسم لي لأول مرة في حياتي عندما قُبلت أوراقي للعمل هنا، دعوت الله كثيرًا أن يوفقني للحصول علىٰ هذا العمل واستجاب لي، وما كان إصراري علىٰ العمل فيها طلبًا للمال في الدرجة الأولىٰ، وإنما كان لرغبتي الملحة في الابتعاد عن مكان مولدي ونشأتي البائسة، فقد قررت أن أبتعد عن الماضي بكل ما يحمله من أفراح وأتراح، وما أكثر أتراحه التي طرحتني بعيدًا عن متعة الحياة وشغفها، ابتعدت عن مسقط رأسي في محافظتي الفقيرة البعيدة عن العاصمة مئات الكيلومترات ونزحت إلىٰ العاصمة وذبت بين أهلها كما يذوب الملح في الماء، وطويت صفحات الماضي وشرعت بكتابة مستقبل جديد.

كانت أعداد الناس تطمئنني أنني كالإبرة التي سقطت وسط كومة من القش؛ لن يستطيع أحد الوصول إليَّ، ولن يتعرف عليَّ أحد في هذه الجموع الغفيرة، قطعت كل صلتي بالماضي، غيَّرت رقم هاتفي، وأغلقت صفحتي علىٰ موقع التواصل الاجتماعي، ورغم كل الحنين الذي كان يجتاحني بين الحين والآخر لذكريات الطفولة إلا أنّ ما عانيته من آلامٍ كان كفيلًا أن يمحو أثر هذا الحنين ويحيلهُ إلىٰ جحودٍ وإنكار، بل وغصّة تكاد تخنقني كلما تذكرته.

لم يكن هروبي من الماضي هروبًا من جرمٍ ارتكبته، وإنما كان هروبًا من نفسي، نفسي التي لازمتني طوال حياتي ولم يتعرف كل منا علىٰ الآخر، كانت كل واحدة منا في طريق غير الأخرىٰ، بيننا صراع خفي لكنها هزمتني في كل صراعاتنا، وكانت هزيمتي أمامها مدوية إلىٰ الحد الذي جعلني أكرهها وأتمنىٰ التخلص منها، وكم حاولت ذلك! لكنها كانت صلدة وعنيدة، فما أفلحت معها محاولاتي، وكانت كل مرة تنظر إليَّ وعلىٰ شفتيها ابتسامة ساخرة من ضعفي وقلة حيلتي، فلم أجد بُدًّا إلا مهادنتها وإعطاء نفسي فرصة كي أتصالح معها لعلّنا نمضي معًا في الطريق ذاته فنصل وتكتب لنا النجاة.

سلّمت علىٰ الحاضرات وأشارت مديرتي إليَّ بالجلوس فجلست، كان التجهم والتحفز مرسومًا علىٰ وجهَي المرأتين مما أشعرني بخطورة الموقف.

لحظاتٌ من الصمت المرتبك قطعتها المديرة بقولها:

- أستاذة عاليا، والدتا الطالبتين «ميار» و«نوران» اللتين في فصل ٤ / ٣ تشكوان خلافًا نشب بين الفتاتين وتطور إلىٰ شجار بالأيدي مما أدىٰ إلىٰ إصابة إحداهما.

رفعت حاجبي اندهاشا مما سمعت وتساءلت:

- متىٰ وقعت تلك المشاجرة؟

أجابت إحداهما:

- في حصة الألعاب بالأمس.

فقلت وقد ازدادت دهشتي:

- وأين كانت مدرسة الألعاب؟

قالت المديرة على الفور:

- لقد أرسلت استدعاءً للأستاذة هالة وستأتي بمجرد انتهاء حصتها لنبحث معًا في الأمر.

كانت نبرة المديرة الحادة تحمل رسالة لي ألا يجب أن أزج باسم أية زميلة في أية مشكلة حتى يتم تسوية الأمر، وبالطبع لم يكن الهدف مصلحة الزميلة ولكن كل الهدف هو سمعة المدرسة!

قالت المرأة التي تكلمت من قبل بصوتٍ متهدجٍ يعتصر ألما:

- ابنتي هي المصابة يا أستاذة عاليا، لطمتها ابنة الأستاذة -ثم أشارت إلى السيدة الأخرى وأكملت- على خدها الأيسر، وجرحتها بفص خاتمٍ تلبسه في إصبعها

صرخت الثانية نافية التهمة عن ابنتها:

- لقد شهدت زميلاتهما «هايدي» و«نورهان» أنّ ابنتي لم تضربها وإنما كانت تشيح بيدها فظنت ابنتك أنها ستلطمها فأشاحت بوجهها بعيدًا فاصطدمت بحرف الباب فخدشها.

تدخلت المديرة قبل أن يحتدم النقاش بينهما، وقالت:

- ستحقق الأستاذة عاليا في الأمر والمخطئة ستنال عقابها فأرجو منكما أن تهدآ وسيُحل الأمر وتتصالح الفتاتان، ولكن بعد أن تعرف المخطئة حجم خطئها، وتعتذر بالطريقة التي ترضي الطرف الآخر.

انتهت الجلسة بعد أن أخذت الأمهات وعدًا مغلظًا بحل المشكلة، وذهبت كل واحدةٌ منهما إلىٰ بيتها وذهبتُ كي أباشر عملي في البحث وراء تلك الأزمة، وفي الحقيقة فإن معرفة أسباب الخلاف وحله بين الفتاتين لم يكن بقدر صعوبة تهدئة الأمهات، فدائمًا علاج مشاكل الأطفال أيسر بكثير من علاج عقد الكبار.

لم أتعجب كثيرًا، عندما عرفت أنّ سبب الشجار هو تنافس الفتاتين علىٰ لفت انتباه زميل لهما في نفس الفصل، ولِمَ لا وقد انفتح أطفالنا علىٰ العالم بأسره وأصبحوا يعرفون وهم في سنهم هذه ما لم نعرفه نحن إلا في سن الشباب.

لم يكن علىٰ أيامنا مثل هذا الانفتاح علىٰ العالم بكل ما يحمله من صلاح وفساد، أدىٰ إلىٰ هذا الانحلال الأخلاقي الذي لم يسلم منه كبير أو صغير، ولكن الواقع يقول إنّ لكل زمانٍ فضائله وعيوبه، ورغم الانغلاق النوعي علىٰ أيامنا في فترة طفولتي ومراهقتي، إلا إنه كانت هناك بعض الحالات التي تركت في وجه المجتمعات وصمة وأثرًا سيئًا علىٰ الجميع.

كـان التلفـاز بقناتيـه الأولـىٰ والثانيـة، هـو المتـنفس الوحيـد لنـا والنافذة التي نطل مـن خلالهـا علىٰ العـالم، لـم تكـن الفضـائيات قـد انتشرت كهذا الانتشار المريع، ورغم ذلك فقد كان لما يعرضه التلفاز أثره علىٰ الفتية والفتيات، وكـم مـن حـالاتٍ تـم ضـبطها في المـدارس المشـتركة، بـين الطلبـة والطالبـات، أو في مـدارس البنـات بـين بعـض المدرسين الذين تخلوا عن دورهـم التربوي والفتيات.

كانت مدرستنا تضم المراحل الأساسية كلهـا مـن الصـف الأول وحتىٰ الصف الثالث الإعدادي، الأعمار متفاوتة، والمشكلات كثيـرة ومتنوعة، ولكن بقيت مشكلة العلاقات العاطفية هي أكبر المشـكلات التـي تواجـه المختصـين بدراسـة حـالات الطـلاب واحتياجـاتهم ومشكلاتهم.

وتكون الكارثـة الكبرىٰ إن كـان أحـد أطـراف العلاقـة مـن طـاقم التـدريس، فكـم هـو مريعٌ أن يـذهب الأب بابنتـه إلـىٰ دور العلـم وقـد اطمأن قلبه أنها بين أيادي أمينة ثم تعود وقد لفهـا العار ووصـمها الإثـم بين جنبات ذلك الحصن المنيع الذي قبـل أن يعلـم العلـم وكـان دوره الأول هو تعليم الأدب.

لا زلت أذكر تلك الفتاة التعيسة «نهلة» التي تركـت حكايتهـا أثـرًا في نفسـي لازمنـي لسـنوات، ماتـت «نهلـة» وكانـت في الصـف الثالـث الإعدادي وكان هذا أول لقائي المباشر بالموت، بكيتها وأظن أنني لن أبكـي في حيـاتي أحـدًا مثلهـا، العجيـب أنـه لـم تكـن ثمـة علاقـة وطيـدة

تربطني بها، ولكن أن ترىٰ الموت ببشاعته ووحشيته ينشب أظافره في وجه فتاة في مقتبل العمر تحمل أحلاما وآمالا، تحمل بين ضلوعها قلب طفلة تتعلق بكل ما هو جميل، فتحت للدنيا ذراعيها وما كانت تعلم أنّ تلك الدنيا الغادرة تخبئ خلف ظهرها خنجرًا لتطعنها به بمجرد أن تحتضنها!

بكيت نهلة لأنها ماتت صغيرة فماتت معها أفراحي وآمالي، وبكيتها لبشاعة الميتة التي ماتتها ماتت لأنها أحبت، فقتلها الحب، أو قتلها الظلم أو الكره القابع في قلوب البشر، قتلها الشر والخداع والخيانة، أحبت، فماتت، وما بكىٰ عليها ذلك الذي منحته الحب، فكان الثمن حياتها!

استيقظت المدرسة ذات صباح علىٰ حادثٍ بشع تناقلته الألسنة بغير مراعاةٍ لحرمة الموت، فنعت مديرة المدرسة لنا الفتاة في طابور الصباح ثم أكملت الطالبات وهيئة التدريس المحاسبة وكأنهم قد أوكل إليهم أمر حساب القبر!

قيل إنّ الحادث لم يكن قضاءً وقدرًا، إنما كان متعمدًا، أحرقها أبوها بأن سكب عليها الجاز وأشعله فيها وتركها تحترق وتستغيث دون أن يلين له قلب، أو تدمع له عين، ألهذا الحد يقتل الحرص علىٰ الشرف الرأفة والرحمة؟ بل ويقتل عاطفة الأبوة؟ أهو خوفٌ وحرصٌ علىٰ المقتول أم حرصٌ علىٰ الأحياء؟ إنها الأنانية والضعف أمام الحياة، كنت صغيرة وقتها إلىٰ الحد الذي لا أستطيع به فهم المعنىٰ

الحقيقي للشرف وما يمثله بالنسبة إلىٰ الأهل، ولكن عندما كبرت وتعلمت عرفت أنّ الشرف ليس قاصرًا علىٰ حفاظ البنت علىٰ بكارتها، فقد تحافظ الفتاة علىٰ بكارتها وقد تحافظ المرآة علىٰ جسدها ولا تمنحه لأحد إلا بحقه، ولكنها في النهاية هي عديمة الشرف.

فقدت «نهلة» بكارتها فقتلها أبوها حفاظًا علىٰ الشرف ولم يعلم أنه بفعلته تلك قد فقد شرفه إلىٰ الأبد، ضحىٰ بآخرة ابنته من أجل دنياه هو، ماتت «نهلة»، وأنا لا أعلم ماذا ستقول لله عندما يسألها وهي لم تعط فرصة للتوبة والرجوع! سألت نفسي كثيرًا ماذا ستقول لربها، وعندما لم أجد جوابًا بكيت بحرقة، دعوت الله كثيرًا أن يرحمها ويغفر لها، ولا أدري! هل سيجيب الله دعائي؟

كانت «نهلة» جميلة، ورشيقة، كانت مفعمة بأنوثةٍ طاغية ولطافة تسلب الألباب، لا تكف عن الضحك ومشاكسة الجميع، قالت لي «جميلة» عنها ذات يوم: «إنها فتاة لعوب»، لم أفهم وقتها معنىٰ كلمة لعوب، لكن «جميلة» كانت تفهم، كانت تعرف أكثر مني في هذه الحياة، وعندما سألتها شرحت لي كيف تكون الفتاة لعوبًا، وقالت لي إنّ هذا كان باديًا وجليًا في نظرات الفتاة، ثم عابت عليّ أنني لم ألحظ هذا، فالعيون تفضح أصحابها، واستنكرت بلاهتي وحماقتي وعدم قدرتي علىٰ معرفة أسرار البنات من غير أن يبُحن بها!

في الحقيقة أنا لم أر ذلك في عيني «نهلة»، وإنما كنت أرىٰ فيهما حبًّا وإقبالًا علىٰ الحياة، قابلتها ذات صباح وكنت ذاهبة إلىٰ المدرسة

في وقتٍ مبكر، مررت علىٰ «جميلة» لاصطحابها كما اعتدنا فوجدتها مريضة ولن تستطيع الذهاب، فأكملت الطريق وحدي، وفي الطريق التقيت «نهلة»، كانت تسير وحدها، خطواتها رشيقة كخطوات راقصة باليه، وجهها مضيء، تنساب خصلات شعرها علىٰ جانبي وجهها، يتلاعب بها الهواء، فيطيّرها ثم لا تلبث أن تعود، لتستريح ثانية علىٰ أكتافها عندما يهدأ، سلّمتْ عليّ وكنت كعادتي لا أبدأ بالحديث، فَرِحْتُ لأنها كلمتني فقد كنت أتمنىٰ وصالها ولا أدري لماذا كنت أتمنىٰ ذلك، لا أدري هل أحببت الملاك الذي بداخلها، أم أردت أن أخرج الشيطان الذي بداخلي بارتباطي بها، سألتني:

- ما اسمك؟
- عاليا.

أجبت بارتباكٍ وفرحة، قالت دون أن تلتفت إليَّ:

- جميل اسمك.

ابتسمت، التفتت إليّ لترىٰ أثر كلامها ثم أكملت:

- كما أنّ شكلك جميل أيضًا.

فرحت كثيرا برأيها فيّ، وقلت بسعادة:

- أنت أيضًا جميلة.

ضحكت وقالت بدلال:

- أعرف

ثم أكملت بجدية:

- أين صديقتك؟
- هل تعرفينها؟
- ومن لا يعرف جميلة؟

تعجبت من كلامها، ولم أفهم ما كان يحمله من إشاراتٍ لم تعجبني، لكنني لم أتكلم أو أدافع عن صديقتي فقد كان بداخلي شيءٌ خفيٌ تجاهها رغم عمق علاقتنا، لكنه كان عمقا أسود؛ كلما ازداد عمقا ازداد قتامة.

قالت مكملة حديثها:

- أتعجّب كيف تصاحب فتاة هادئة ومحترمة مثلك، واحدة مثل جميلة!

قلت بتردد:

- وما بها جميلة؟

قالت:

- ألا تعرفين أنّ لها علاقات متعددة بشباب في المدرسة الثانوية المجاورة لنا؟

- علاقات بشباب!

قلت بتعجب وقد اتسعت حدقتاي دهشة، فقالت:

- -نعم، ليس واحدًا، بل أكثر.

ثم أشارت بيدها، ثلاثة، لم أكن أعلم عن «جميلة» هذا، وإنما كنت أعرف أنها تحب ابن خالها بالصف الأول الثانوي، وكانت تقابله وأنا أنتظرها في مكان بعيد عند عودتنا من المدرسة، أو ذهابنا معًا إلىٰ درس خاص أو غيره.

لم أخبر «نهلة» بالحقيقة، ولكني تركتها تتكلم عن صديقتي وتخبرني بأمورٍ أنا أعلم مدىٰ كذبها، لكنها راقتني وكأنها كانت تشفي غلًا دفينًا أجهل سببه!

علىٰ باب المدرسة وقفت «نهلة»، وناولتني حقيبتها، ثم أخرجت من جيبها شريطًا جمعت به شعرها في ضفيرة وحيدة للخلف، فقد كانت إدارة المدرسة تمنع الفتيات من إرسال شعورهن، فكانت بعضهن يحتلن علىٰ الأمر كما فعلت «نهلة» ولا أدري لماذا تمنيت أن أفعل مثلها، ولكن الذي منعني في الحقيقة أنّ شعري كان أجعدَ بعض الشيء، ولم يكن في نعومة شعرها الذي يداعبه النسيم فيضحك له ويتطاير في الهواء.

توطدت علاقتي بنهلة بضعة أسابيع ثم انتهت، وكان هذا يغضب جميلة، التي بدأت تلحظ بعض تغير في تصرفاتي والذي بدا واضحًا للجميع أنني أقلد بها نهلة، فتشاجرنا كثيرًا أنا وجميلة، وتخاصمنا أيامًا وكانت نهلة تدعمني وتملأ فراغ وحدتي، بينما جميلة كانت تتقد غيظًا من هذه العلاقة، رغم التفاف الفتيات حولها.

وعندما بدأت تتناقل أخبار عن نهلة، وعلاقتها «المشبوهة» بأحد المدرسين حديثي التخرج، أعميت بصري عن كل ذلك، ولم أر فيها إلا الفتاة المنطلقة التي تحب إلىٰ درجة أنها لم تبخل علىٰ حبيبها بأغلىٰ ما لديها، وعندما علمنا بخبر وفاتها لام عليها الجميع إلا أنا، فأنا الوحيدة التي رأيت دموع العشق تتقاطر من عينيها، وأنا الوحيدة التي رأيت الشوق يسبق خطواتها قبل كل لقاء، وأنا الوحيدة التي رأيت اللهفة تقفز من عينيها عندما يلوح لها الحبيب من بعيد.

ماتت نهلة، فعلمت أنّ الموت سهم أطلق ولم يحدد لنفسه اتجاهًا، فالجميع مُعرّضٌ لإصابته، الكبير والصغير، الرجال والنساء، الدميمات والجميلات، نعم، حتىٰ الجميلات يأكل جمالهن الموت، يأكله بلا رحمة أو خجل.

أرعبتني الفكرة، فعزفت عن الطعام أيامًا، وأصابني الاكتئاب، لكنني لم أجد يدًا تربت علىٰ كتفي وتمنحني بعض الأمان، فأمي قد منحت أحضانها لرجلٍ آخر غير أبي، وأبي منح أمانه لامرأةٍ أخرىٰ غير أمي، وتركاني أنا لصقيعٍ الوحدة وأحضان جدتي الباردة، فزاد خوفي وزادت كآبتي، ولم أجد صدرًا يمنحني بعض الدفء إلا صدر جميلة، فعدت إليها مرغمة وطاوية صفحة نهلة إلىٰ الأبد، وبادئة صفحة جديدة مع جميلة، لكن نهلة بقيت هناك في ركن خفي في نفسي، ركنٌ يدق أجراس الخطر ويقول «احذري مصيرها».

الفصل الثالث

استغرقت أسبوعًا كاملًا في دراسة حالة الفتاتين، أحاول التوصل إلىٰ حلٍّ يرضي جميع الأطراف؛ كان عليّ أن أرضي أولياء الأمور ومجلس إدارة المدرسة ومديرتي التي ما منعها عن معاقبتي لتأخري في ذلك اليوم إلا انغماسي في هذه المعضلة التي لم تخطر علىٰ بال.

ولم يكن عليّ عبء أكبر من عبء إرضاء مديرتي التي هي الرئيس المباشر لي، وأي تقصير مني يؤثر مباشرة عليها أمام مجلس الإدارة، كان عليّ أولًا أن أرضيها، وذلك باستشارتها في كل خطوة في طريق الحل قبل أن أخطوها، فكانت معي أولًا بأول حتىٰ وصلنا إلىٰ الحل الجامع فأرضينا الكل، وما كان إرضاء الأهل بالأمر الهين، ولولا تشابك المصالح لوصل الأمر إلىٰ القضاء، فالفتاتان من أسرتين ذواتا شأنٍ في مجتمعنا، فالآباء من الرموز البارزة في عالم السياسة والاقتصاد، أما الأمهات فهنّ من سيدات المجتمع اللواتي يتنافسن فيما يظهر للمجتمع أنها أعمال بر وخير.

ولا أدري أكانت الأقدار تلعب بهاتين الأسرتين كي تتسع الفجوة وتزيد من خلافاتهم التي لا منطق لها، أم أنها كانت سببًا لتعميق العلاقة وتشابك المصالح بصورة أكبر.

لقد تعاظم أثر الخلاف بين الآباء حتىٰ وصل بغير قصد أو ترتيب إلىٰ الأبناء، وسألت نفسي متعجبة، هل كانت تعلم الفتاتان شيئًا عن تلك الخلافات فحذتا حذوها؟ هل كانت «نوران» علىٰ علم بأن والدتها تنافس والدة «ميار» علىٰ الفوز بقلب ذلك المطرب التافه، والذي يصغرهما بعشرة أعوام؟!

هل كانت الفتاتان تعلمان أنّ أبويهما علىٰ علمٍ بتلك المنافسة لكنهما يغضان الطرف عنها لانشغالهما بمنافسة أكبر؟ منافسة من نوع آخر، منافسة لا تعرف المشاعر والأحاسيس لها طريقا، وإنما هو قطار يسير علىٰ قضبان المصلحة، قضبان لها اتجاه واحد لا تلوي عنه أو تحيد، وقوده أوراق «البنكنوت»، يستبيح كل شيء فلا شرف ولا مروءة، القطار يسير، والقيم تتساقط منه فيدهسها تحت عجلاته ولا يبقىٰ إلا الخبث، فلا عجب أن يشرب الأبناء من ذات النبع الفاسد الذي يستقي منه الآباء فنرىٰ طفلتين في عمر الزهور تقلدان أمهاتهما وتتنافسان علىٰ من لا يلقي لإحداهما بالًا.

بحثت عن البراءة في عيون كلتا الفتاتين فلم أجدها، وإنما وجدت بؤس عيش يظنه البعض ترفًا ولا أسميه أنا إلا ابتلاء.

كنت أنأىٰ بنفسي دائمًا عن تلك الأخبار التي لا تصيب سامعيها إلا بالغثيان، وما كنت لأفتش أو أستكشف ما خفي منها لولا أن رزقني الله بزمرة من الأصدقاء يغوصون في أعماق المجتمع، فيجيئون بما يعلق بأذهانهم من رديء الأخبار وأخزىٰ الحكايات.

تلك الفئة التي أطلقت علىٰ نفسها عنوة لقب «الصفوة»، لم يكن قد أسعدني الحظ من قبل والتقيت بأحدٍ منها، اللهم إلا مرة واحدة، وكنت وقتها في مرحلة الطفولة أو بداية المراهقة، تعرّفت وقتها علىٰ زميلة محسوبة عائلتها علىٰ تلك الطبقة -وإن كانوا في ذيلها- إلا إنهم بالنسبة لأمثالنا نحن البسطاء هم صفوة الصفوة.

زرتها ذات يومٍ في بيتها وقد لاحظتْ عليّ من قبل بساطة الحال، ولكن ما دفعها لمصاحبتي هو أنني كنت من المتفوقات دراسيًا، وكانت المنافسة بيننا علىٰ أشدها، وكنت لسذاجتي أحسبها منافسة شريفة، ولكنني علمت بعد ذلك أنّ الشرف هو الفضيلة الوحيدة التي تنأىٰ بنفسها عن مثل هذه المجتمعات.

تفننت الفتاة في إذلالي وأنا في قلب بيتها بطرقٍ شتىٰ، كانت تستعرض مقتنياتها التي لا أملك أقل القليل منها، وكانت تصوب عينيها عليّ طوال الوقت كي ترىٰ أثر ذلك في نفسي، رأيت في عينيها نظرة تشفٍ كأنها نالت مني وتفوقت علي كما تفوقت أنا عليها دراسيًا، للحظة تمنيت لو أبكي وأصرخ في وجهها وأنعتها بالقسوة، لكنني سرعان ما تماسكت وتملكت مشاعري، حتىٰ عدت إلىٰ أحضان

حجرتي التي شهدت معي كل الهموم وانتحبتُ بين جدرانها، ورغم أنني لم أجد منها ردًّا ولم ألق منها إلا برودةً صماء فقد كانت أكثر دفئًا من جليد كثيرين، ممن يحسبون علىٰ بني البشر.

منذ ذلك اليوم لم أحب أن ألتقِ أو أعرف إلا من هم بسطاء مثلي؛ يسري في عروقنا ذات الدم الملوث بما يعده البعض أمراضًا يجب الشفاء منها، وهي حقًّا أمراض ولكنها أمراض لا تفتك بحامليها، وإنما تكون سبب إزعاجٍ للخالين منها، أمراضٌ تسمو بأصحابها في عالم الفضيلة، ولا يجنون منها إلا الأوجاع، كالصدق والأمانة والإخلاص والحب والوفاء، إلىٰ آخر تلك الصفات التي تودي بصاحبها إلىٰ هلاك محقق لو استمر علىٰ عناده وأراد الوصول بها إلىٰ ذات المكانة التي يقبع فيها أصحاب الدماء الزرقاء النقية.

أوه، كدت أنسىٰ أن أحدثكم عن فريق البحث خاصتي الذي يأتي إليّ بكل ما لذ وطاب من الأخبار الشهية والفاسدة أيضًا، فقد استلمت العمل في هذه المدرسة منذ أعوام ثلاثة مضت، كنت متوترة إلىٰ الحد الذي دفعني إلىٰ نثر مودتي وابتساماتي في وجوه الجميع حتىٰ شعرت لوهلة أنهم يظنون بي خبلا أو جنونًا، فما مررت به في أعوامي الطويلة الماضية جعلني أخشىٰ الجمود وأتجنب الخوف، فوجدت أنّ الحل الأمثل للعيش الهادئ السعيد هو التماهي في طبقات البشر المختلفة، ولكن إلىٰ الحد الذي لا يجعلني أعاني، فلا أملّ منهم، ولا ينفرون

مني، فلم أتدخل فيما لا يعنيني، ولم أسمح لأحد أن يعرف عني إلا ما أريد قوله.

كانت هذه هي القوانين الجديدة التي وضعتها في بداية الحياة الجديدة، فتعرفت علىٰ الكل، وتوددت إلىٰ الكل توددًا لا إفراط فيه ولا تقطير ولكن وكما يقال غلب الطبع التطبع، ولما كان طبعي الانطواء وعدم الإقدام أو المبادأة والاختيار، انتظرت حتىٰ يضمني أحدهم إلىٰ زمرته ولم أمانع إذا تودد إليَّ أحدهم وأخشىٰ اقتراب الآخرين، وشيئا فشيئا وجدت نفسي وسط مجموعة أنا منها محل القلب من الجسد، كانا فتاتين هما «نيفين» و«ريهام» وشابين هما «مصطفىٰ» و«إيدن »، تماهىٰ كل منا في الآخر رغم الاختلاف الجلي الواضح بيننا، ولم أدر ما السر في ذلك، أهو الحب الذي يطرق القلوب التي يختارها هو ولا تختاره؟ أم الهموم المتشابهة التي أثقلت كواهلنا فصرنا يستند بعضنا إلىٰ بعض؟ أم هو التكامل الذي يجمع الضدين فتكتمل الصورة!

أيًا كان السبب فقد اجتمعت قلوبنا وأصبحنا أصدقاء بذلك المعنىٰ الحقيقي للصداقة.

كان مصطفىٰ معلمًا للغة العربية وإلىٰ جانب عمله في المدرسة كان يعمل مدققًا لغويًا في إحدىٰ المجلات الأسبوعية الشهيرة، وهذه الوظيفة هي التي سمحت له التعرف علىٰ الكثير والكثير من خبايا حياة الصفوة، فكان ينقل إلينا كل ما يعرفه فنتندّر أو نتحسر وسرعان

ما ننسىٰ وننغمس في همومنا فنحمد الله عليها ونراها وقد صغرت في أعيننا، وهانت علينا تصديقا لمقولة «من رأىٰ بلوىٰ غيره هانت عليه بلواه» فكنا نعد ترفهم بلوىٰ وشظف عيشنا نعيمًا مقيما، هكذا كنا نعزي أنفسنا.

أعلم أنكم تتساءلون ما بال أحمد -صاحب الخطاب- لا أذكره، ولم أتكلم عنه،

اطمئنوا؛ سوف أحدثكم عنه الآن، ولكن دعوني أخبركم أمرًا قبل أن أحكي لكم عن أحمد، فأنا عشت في بيت جدتي أعاني من الحرمان مما تحب أن تتمتع به فتاة في مثل سني، فلم أكن أرتدي ثيابا جيدة، أو أتنزه أو يكون لي مصروف شهري ككل البنات، وكان ظني أنّ أبواي قد تخليا عني وأنّ دخل جدتي من معاش جدي لا يكفي لسد احتياجاتي كفتاة في سن المراهقة، خاصة وأن جدتي كانت لديها فتاة تكبرني بعامين أنجبتها في سن متأخرة وكانت تجهزها للزواج، لكن الفتاة ماتت قبل أن تتزوج، وسأحكي لكم حكايتها فيما بعد.

رغم سخطي ونفوري من تلك الحياة المتقشفة إلا إنني كنت ألتمس لها الأعذار بعض الوقت وأصب جام غضبي علىٰ أبوي اللذان ما عادا يتصلان بي أو يعرفان عني أي خبر، ولكن بعد وفاة جدتي عرفت المفاجأة التي لم تخطر لي علىٰ بال، فقد أخبرني خالي -وكان كاتم أسرارها- أنّ جدتي أودعت لي في البنك وديعة باسمي، عبارة عن سبيكة ذهبية اشترتها بالأموال التي كانت ترسلها أمي -ولا أعلم

كيف- للإنفاق علي، فكانت تدخرها لي وتنفق عليّ من معاش جدي.

أصابني هذا الخبر بشعورين متضاربين، فرحة عارمة بتلك الثروة التي هبطت عليَّ من السماء بعد قحط وضنك وشظف عيشن وسخط شديد لحزني علىٰ أجمل أيام حياتي، التي ضاعت فلم أتمتع بها كبقية الفتيات، جعلتني هذه المشاعر لا أستطيع تحديد موقفي من تلك الأموال وكيف سأستفيد بها، وكان هذا لصالحي، إذ فكرت جيدًا كيف أستفيد بها فاشتريت شقتي هذه التي أقيم بها الآن.

أعود إلىٰ أحمد..

ذات صباح وبنفس الطريقة السابقة تقدم أحمد نحوي بخطىٰ ثابتة وجادة، لكن ابتسامته كانت قد غادرت وجهه البهي وارتسمت بدلًا منها أمارات الجدية وبعض غضب لم أفهم سببه إلا بعد أن قرأت رسالته الثانية، التي سلمنيها دون أن ينبس ببنت شفة، تناولتها في صمت كأنها مقرر صباحي لا يجب أن أرفضه، كنت ذاهلة مما يحدث ولكني سرعان ما انتبهت وهو يخطو بضع خطوات مبتعدًا عني فهرولت خلفه واستوقفته قائلة:

- أستاذ...

ثم نسيت الاسم فتلعثمت قليلًا ولكني أكملت:

- انتظر من فضلك.

وقف غير بعيد دون أن يلتفت، فقلت بتردد مرتاب:

- من أنت؟

لم يجب، فانتظرت برهة، ثم أكملت:

- لماذا ترسل إليَّ هذه الرسائل؟

التفت نحوي وقد زينت الابتسامة وجهه، لكنه لم يجب، وإنما اكتفىٰ بإيماءة محييا إياي ثم انصرف وتركني فريسة ذهولي وتعجبي!

أفقت مما أنا فيه فنظرت إلىٰ الظرف الذي تحتضنه أناملي وبلا تردد فتحته، فإذا بخطاب وردي كسابقه، لكنه لم يحمل بين طياته إلا جملة واحدة «لا زلت أنتظر ردك».

خفق قلبي وشعرت بابتسامة تغزو شفتي رغمًا عني ورغم مقاومتي لها، وتدرجت بعض حمرة في وجنتي، لم أرها وإنما شعرت بحرارتها، تطلعت إلىٰ حروف جملته التي أسرتني ولا أدري لماذا، هل لأنني لم أجد من ينتظرني من قبل؟ لا أعلم ولم أهتم كي أعلم، بل تركت نفسي للسعادة التي بدأت تغمرني، سعادة جعلتني أبتسم لبائع الجرائد لأول مرة وأنا أنقده جنيهاتي القليلة نظير مجلتي المفضلة، ثم ابتسمت لذلك الفتىٰ الجالس علىٰ المقعد الأول خلف سائق الحافلة طالبة منه في صمتٍ ودود أن يفسح لي مكانًا أجلس فيه، فبادلني الابتسام وتفضل عليّ بأن ترك لي مكانه بجوار النافذة «مكاني المفضل دائمًا».

شعرت أنّ الابتسامة قد انتصرت علىٰ كل محاولات التجهم والجدية التي اعتدت ارتداء ملامحهما فمنحتني وجهًا غير الوجه وروحًا غير الروح، استشعرها الجميع فكانوا يبادلونني الابتسام، حتىٰ التقيت بـ «نيفين»، تلك الفتاة غريبة الأطوار التي تطلعت إليَّ بتعجب وقد التمعت عيناها ثم قالت:

- أرىٰ في عينيك قصة حب.

الفصل الرابع

خلت حجرة المكتب إلا مني بعدما خرجت نيفين وريهام كل واحدةٍ منهما إلىٰ فصلها، وبقيت وحدي أفكر فيما قالتاه بعدما ألقت نيفين ملاحظتها في وجهي كالقنبلة.

«أرىٰ في عينيك قصة حب»

قصة حب! أيعقل هذا؟! أكان في وسعي أن أعيد الكرة وأسلّم قلبي لأحد بعد!

لا، لا، غير معقول، لست بهذه البلاهة، كفاني ما لقيت من ألم الفقد، لن أسقي قلبي ثانية من ذلك النبع، شهي المنظر وحلو الطعم لكنه يترك في الحلق مرارة لا تغادره أبدًا.

ولكن لماذا قالت نيفين هذا الكلام؟ ألهذا الحد فضحتني عيوني؟! لا أنكر أنّ شيئًا ما تحرك بداخلي، لا أعلم كنهه لكنه أسعدني، فقبضت عليه وأقسمت عليه ألا يهجر صدري ويسكن عيني، لكنه خذلني وأحنث قسمي.

هيه يا نيفين! عجيب أمرك أيتها الفتاة، كيف قرأت ما يختلج بصدري وكنت أظنه لم يبرحه؟!

كنت أظن أنّ صدري هو صندوقي الأسود الذي لا يطلع عليه غيري، لكن يبدو أنه قد فُتح علىٰ مصراعيه ولكل من أراد النظر، هل حقًّا هي قصة حب؟ قصة حب!

ارتعاشة خفيفة سرت في جسدي عندما كررت تلك العبارة في نفسي، تسللت بعدها ابتسامة حيية زينت ثغري فلم أكبحها، وإنما تركتها فاتسعت حتىٰ استضاء وجهي بها، تسللت يدي بغير إرادة إلىٰ حقيبتي القابعة أمامي فأخرجت الخطاب، وقبل أن أفتحه، اقتحمت خلوتي «دادة سعدية» تخبرني أنّ المديرة تطلبني في مكتبها فانتفضت لدخولها، واضطربت حركة يدي وبدوت كمراهقة ضبطتها أمها تضحك لابن الجيران، فأعدت الخطاب إلىٰ مكانه بطريقة تثير في النفس الظنون، لكن «دادة سعدية» لم يبد عليها أنها لاحظت شيئا، فقد أبلغتني بطلب المديرة ثم غادرت حتىٰ قبل أن أعطيها جوابًا، فبقيت لحظات حتىٰ استعدت هدوئي، ثم ذهبت إلىٰ مكتب المديرة.

كانت بانتظاري زميلة جديدة تعاقدت معها المدرسة لسد العجز في الاختصاصيين الاجتماعيين، وكان عليَّ الترحيب بها:

- عاليا.

قدمت لها نفسي بابتسامة ودودة فقالت مبتسمة:

- سلمي.

أثنيت علىٰ اسمها الذي أعجبني فابتسمت خجلًا، خرجنا معًا إلىٰ الحجرة الخاصة بنا، قدمت لها واجب الضيافة ومازحتها ألا تعتاد الأمر فضحكنا معًا.

مر اليوم عليَّ خفيفًا، فلم تغادر البسمة شفتي، بل وصل الأمر إلىٰ أن علت ضحكاتي، وكان من الصعب أن تعلو بهذه الطريقة من قبل، وكانت نيفين ترمقني بتعجب، لاحظت ذلك عليها، لكن لم أعرّها انتباها، فرغم صداقتنا إلا أنّ نيفين ليست الصديقة التي من الممكن أن أفتح لها قلبي تتجول فيه كيف تشاء، فالاختلاف بيننا شاسع، وإن كنت ألتمس لها بعض العذر، فيما آلت إليه حياتها ولكني أنكر عليها صدودها الدائم لكل بارقة أمل في طريق الهداية والعودة إلىٰ ما يحمله مجتمعنا من سمو ديني وأخلاقي.

كانت تضحك ساخرة، كلما رددت أمامها تلك العبارة «مجتمعنا به سمو ديني وأخلاقي»،

وكانت تؤذيني سخريتها رغم يقيني أنها محقة بعض الشيء، لكن التعميم يصيب المجتمع بالإحباط ثم الانحلال كما جرت العادة في كثير من المجتمعات، وإذا فقد المرء الأمل في الإصلاح فسد كي يجاري الفاسدين، وهذا ما أُريدَ لنا: أن يطفو الخبث وتعلو الأصوات القميئة حتىٰ يظن العامة أنّ هذا هو الحال، فيفسد من بقي من الصالحين.

في كل مرة نتطرق فيها إلىٰ هذا الحديث ينتهي نقاشنا بجفوة خفيفة سرعان ما ينتهي أثرها في اليوم التالي، فنيفين فتاة من أصول ريفية تمردت علىٰ أوضاعها التي تسلب الفتاة الحق في أن تختار حياتها وبالطريقة التي تريدها.

- وهل منا من تختار؟

هكذا سألتها ذات يوم عندما فُتح النقاش بيننا حول معنىٰ الحرية، ثم أكملتُ:

- فهذا ليس حالك وحدك، وإنما هو حال أغلب نساء عالمنا، فلماذا تتمردين أنت؟

أثارها تساؤلي، فصرخت في وجهي:

- فلترضي أنت بقيودك، ودعي لي حريتي.
- وما هي الحرية من وجهة نظرك؟
- أن أفعل ما أريد وقتما أريد.
- وماذا عن حرية من حولك من الأهل والأصدقاء؟ ماذا عن ألمهم مما سيصيبهم من خزي أمام المجتمع، جراء حريتك تلك؟
- هذا شأنهم! بإمكانهم أن يمنعوا أحدا من التدخل في حياتهم.
- وأين الله؟
- الله أعطانا حرية الاعتقاد، فهل يسلبنا حرية العيش؟

- إذًا فعليك أن تتحملي عاقبة حريتك.

ضحكت ساخرة من جملتي هذه، فقالت بطريقة استفزتني:

- ثم نلوم على حكامنا ديكتاتوريتهم وقد تعلمناها في كتبنا المقدسة!

انتفضت لكلامها، وقلت مُعَنِّفَةً:

- تأدبي في الكلام عن الله!

قالت بعصبية مستفزة:

- لم أتجاوز حدودي، ولكن أصف الحال؛ الله يقول: «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» ثم يتوعد الكافرين بالعذاب الأليم، ويمنّي المؤمنين بالنعيم المقيم، فأين هي الحرية إذًا؟ وكيف سأختار ما لا يرضيه وأنا أعلم أنه سيعاقبني عليه؟

ثم أكملت ساخرة:

- أهذه هي حرية الاعتقاد التي تتشدقون بها؟

حاولت أن أستعيد هدوئي في الرد عليها لكنني لم أكن أهلًا لخوض مثل تلك الترهات التي لا تجدي، فأنا مؤمنة بأنّ الله منحنا حرية الاعتقاد وعدد لنا طرق العيش في هذه الحياة التي خلقها من أجلنا وخلقنا من أجل أن نعبده فيها، لكنه أبان لنا نهاية كل طريق ومنحنا الحرية في السير في الطريق الذي يحلو لنا، فهذه هي الحرية

التي أفهمها: أن تختار الطريق بعدما تعلم عاقبته، وليست العاقبة هي جزاء الاختيار.

خذلني جهلي في الرد عليها كما يخذلني كل شيء، وكان هذا يشعرها بالانتصار ويشعرني بالهزيمة، وشعوري بالهزيمة في هذا المعترك بالذات يصيبني بالحزن والغم، فكنت أتجنب الخوض معها في مثل هذه الأحاديث، وكنت أكتفي بمشاهدتها وهي تسقط في بئر الرذيلة والهلاك وأنا مكتوفة الأيدي لا أستطيع مساعدتها في النجاة، فهي ترفض أولًا ثم أنا لا أملك لها طوق نجاة ثانيًا.

أما ريهام فكانت علىٰ النقيض منها تمامًا، كانت متدينة تجعلك تعاني أشد العناء من شعورين متضادين يتجاذبانك حيال تلك الفتاة، فتارة تتمنىٰ أن تكون علىٰ نفس قدر إيمانها وتقواها، وتارة تحمد الله أن حفظ عليك عقلك ولم يصبك جنونها!

كانت مشكلتها لا تختلف كثيرًا عن مشكلة نيفين، فإن كانت نيفين تعاني كبت وتضييق الأهل في الحرية والانفلات، كانت ريهام تعاني ذات الكبت والتضييق ولكن في طريق التدين والالتزام.

كانت ريهام حاسرة الرأس حتىٰ وصلت إلىٰ المرحلة الجامعية، وهناك انقلب حالها، أو بمعنىٰ أصح اعتدل حالها وسلكت طريق الهدىٰ والتدين؛ ارتدت الحجاب بعد صراع طويل مع أبويها اللذان وافقا علىٰ مضض، لكنهم لم يسمحوا لها إلا بارتداء غطاء للشعر، لا يتجاوز أعلىٰ صدرها، وكان طموحها أعلىٰ من ذلك، فكانت تريد

ارتـداء النقـاب والجلبـاب الواسـع، لكـن حالـت الأسـرة بينهـا وبـين طموحهـا فاكتفـت بـأولىٰ الخطـوات علـىٰ أمـل أن تصـل إلـىٰ مبتغاهـا بالصبر والمثابرة.

عدت إلىٰ البيت وكنت أتمنىٰ أن ألتقي أحمد في طريـق عـودتي، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

كنـت أفكـر في أمـورٍ شـتىٰ، وتزاحمـت الأسـئلة في رأسـي طالبـة الإجابـة، «مـن هـو؟ ومـاذا يريـد؟ ولمـاذا يصـر علـىٰ اسـتخدامه تلـك الطريقة القديمة في التواصل؟».

لـم أره رغـم التفاتـاتي المستمرة يمينًـا وشـمالًا لعلّـي ألمحـه مـن بعيد، وسخرت من نفسـي عنـدما تـذكرت أننـي لا أعـرف في أي طـابقٍ يسكن، فرغم أننا نسكن في نفس البناية إلا أنني لا أعرف عنه شيئا! ثـم نهرت نفسي علىٰ أفكاري فلماذا أريد أن أعرف، ومـا يهمنـي أنـا في أي طابق يسكن!

المبنـىٰ الـذي أسـكن فيـه ضـخم ولا يخلـو مـن فخامـة وعراقـة الماضـي؛ تـابع لإحـدىٰ الهيئـات الحكوميـة، لكنهـا أنفقـت عليـه كمـا يجـب الإنفـاق -كـان هـذا قـديما- فـالمبنىٰ شـديد القـدم لكنـه بحالـة جيدة.

أعيش بالطـابق الثالـث، وينقسـم المبنـىٰ إلـىٰ جنـاحين متقـابلين، توسطهما السلم والأسانسير وكـل جنـاح مقسـمٌ إلـىٰ أربـع شـقق، كـل

شقة منهم مكونة من غرفتين وصالة استقبال كبيرة، ومطبخ وحمام مساحتهما معقولة جدًّا.

اشتريت هذه الشقة من أسرة، ساعدني الله لشدة حاجتهم للمال، فعرضوها بثمنٍ بخس، وكان نصيبي أن أشتريها، لولا ذلك ما كنت أحلم أن أعيش في بناية مثل هذه، أو حي مثل هذا.

كنت سعيدة بكل شيءٍ فيها، إلا شيئًا واحدًا «مدام تهاني»، تلك المرأة المتطفلة التي لا يخلو من مثيلاتها أي مكان، فكانت تحشر أنفها في كل ما لا يخصها، سيدة بيت لا تعمل وليس لديها من الأولاد إلا ولدًا وبنتًا، تعاني الفراغ والملل ولا تجد متعتها إلا في تقصي الأخبار، حول كل من يسكنون العمارة أو الحي بأكمله لو استطاعت.

كان يساورها بعض القلق مني، وأحيانًا الحسد! ذلك لأنني أعيش وحدي وأعمل وأملك قراري بنفسي، لا أحد يتحكم فيّ أو يكبت حريتي، ورغم محاولتها في تزيين كلامها إلا إنني كنت ألمح فيه تلميحات خفية تحمل خبثا، ورغم ذلك لم أبد لها أنني أفهم ما ترمي إليه، وظللت أرقب من بعيد غيرتها وحسدها وقلقها الغريب مني.

في البداية لم أفهم سبب قلقها مني ولكن مع الوقت بدأت أفهم السبب من خلال حكاياتها الكثيرة عن الخيانات الزوجية وتلاعب الأزواج وعيونهم الزائغة، كانت تخشىٰ أن أخطف منها زوجها، خاصة وأني قد لاحظت تودده إليَّ مرة بعد مرة.

كانت «مدام تهاني» إذا جاءت إليَّ لا تتجاوز باب الشقة رغم إطالتها في الحديث الذي قد يستمر ساعة أو يزيد، وكلما دعوتها للدخول كانت تأبىٰ، ورغم ضيقي وتأففي وإبدائي لذلك الضيق إلا إنها لم تكف عن ذلك.

في أحد الأيام وجدتها تطرق بابي بعصبية وكانت تجر ابنها تطلب مني أن أذاكر له درس العلوم لأنها تعبت من إفهامه وهو لا يريد أن يفهم، وعندما أخبرتها أني اختصاصية ولست مدرسة لم تهتم للأمر، ولكن أصرّت أن تدخل وهو معها، وأصلحت لنا الجلسة حول منضدة الطعام التي تتوسط الصالة وأجلست ابنها وطلبت مني أن أشرح له الدرس إلىٰ حين أن تصنع لي كوب شاي، ولأول مرة تدخل مطبخي وتتجول في شقتي، وكنت قد لاحظت تلفتها المستمر في كل مكان فعلمت أنها ستتنقل بين الحجرات بالداخل.

فهمت فيما بعد أنها كانت تشك أنّ زوجها عندي، ولولا أنّ هذه الفكرة لم تتعد إلا خاطري وخاطرها لكنت صفعتها علىٰ وجهها حتىٰ أدميته وقطعت علاقتي بها تمامًا، وقد كنت أتمنىٰ ذلك لكنها لم تصرح أبدًا بذلك، فلم أجد علىٰ ظني دليلًا يؤيده.

هكذا هي الحياة، عندما نظن أنها تبسمت لنا تسلط علينا من يكدر صفوها فنتذكر أنها دنيا، مجرد دنيا!

كنت متعبة علىٰ غير عادتي عندما دخلت إلىٰ البيت ونزعت ملابسي بصعوبة وارتديت ملابس البيت، واستلقيت علىٰ السرير

أقلب الخطابين بين يدي وأقرأهما وأعيد قراءتهما مراتٍ ومرات والأسئلة تداعب خيالي، حتىٰ انتبهت إلىٰ صوت نغمشات خافتة في الغرفة، فإذا به فأرٌ يلهو ويلعب داخل خزانة ملابسي، يطل برأسه الصغير من فرجة بباب الخزانة لا تكفي لخروجه.

صرخت وفزعت إلىٰ جارتي تلك أطلب منها العون، فاستجابت علىٰ الفور -هي وزوجها- وكان هذا أحد أهم أسباب صبري عليها.

خاض الرجل معركة حامية الوطيس بالداخل مع ذلك اللعين الصغير، وأنا واقفة أمام الباب أرتعد من شدة الخوف بينما تضحك هي عليّ!

في الوقت ذاته كان أحمد عائدًا للتو من عمله فهاله ما رأىٰ من منظري الخائف المتوتر، فأتىٰ مستفهمًا، لم يتكلم وإنما أشار بيده ما يعني: ماذا حصل؟

فأخبرته جارتي بالأمر لكنها كانت تتكلم بطريقة عادية، وهو يسمع ويبتسم، أبدىٰ رغبته في المساعدة فسمحت له جارتي بالدخول، كل ذلك وهو يشير، بينما ترد هي عليه بالكلام، وأنا بينهما ذاهلة لا أفهم ما يجري حولي.

دخل فالتفت إليها مستفهمة، لا يكاد صوتي يبين، ليس خوفًا، ولكن لغصّةٍ ملأت حلقي، لما رأيته من حال أحمد، فخنقتني.

- لماذا لا يتكلم؟

قالت بحسرة:

- أخرس يا عين أمه.

اتسعت حدقتاي وفغر فمي، فأطبقت عليه بيدي لأغلقه، ثم قلت:

- لكنه يسمع!

همّت أن تتكلم وقد أبدت استعدادها أن تحكي لي حكايته كاملة لولا خروجهما حاملين جثة الفأر في حقيبة ليلقوا به في سلة المهملات أمام الباب.

تبادل مع زوج جارتي الحديث، فكان يشير هو ويتكلم الأخير، وأنا أنظر إليه وقد حملت عيوني مشاعر متضاربة، ما بين إشفاقٍ وحزنٍ وخيبة أمل، ثم أنهىٰ حديثه وقبل أن ينصرف أرسل لي نظرة آسفة، لما لاحظه عليّ من ذهول وخيبة أمل، ففهم أنني لم أكن أعلم عنه شيئًا من قبل، فكانت نظرته بمثابة اعتذار منه علىٰ أنه لم يكن كما كنت أحلم أو أتصور.

دخلت شقتي تتبعني «مدام تهاني»، فهي لم تنس أنها لم تحك لي حكايته بعد، فأخذت تثرثر وتثرثر ولم أفهم من كلامها إلا شيئين أطاحا بكل أحلامي ووأدا قصة الحب، التي بدأت تكتب أولىٰ كلماتها في قلبي.

شيئان أصاباني بالحزن والكآبة اللذان اعتدتهما: الأول أنّ خرسه هذا نتاج حادثٍ أليمٍ مرّ به منذ عامين، والثاني أنه يسكن في الشقة المقابلة في الجناح المقابل بنفس الطابق مع زوجته وابنته.

الفصل الخامس

الحزن الجديد يجلب أحزان الماضي دون أن نشعر..

لم أكن أعلم أن ما عرفته عن أحمد سيجلب لي كل هذا الألم، ألم يستحث القلب على البكاء، نعم، فقلبي هو الذي يبكي وإن بدا الدمع في عيني، وبكاء القلوب أشد إيلاما.

نسيت أني لم أتناول إلا طعام الفطور، لم أهتم لقرقرة معدتي التي تستجديني أن ألقمها أي شيء حتى تهدأ، حتى المياه لم تعد ترويني وما عادت لي رغبة في الري، فالجدب هو ديدني وقد اعتدت تشققات الجفاف التي ملأت جدران قلبي.

أطبق فمي على الصمت ورضيت به رفيقا، فهو ملاذي الأول والأخير، ألجأ إليه عندما تتكالب عليَّ الخطوب، فالكلام يأبى أن يغادر جوفي، وعيوني تائهة في مكانٍ بعيد، لا ترى إلا ذلك العالم الذي عشت فيه آلاف السنين، عالم رسمته في خيالي منذ أن كنت صغيرة، عشت فيه السعادة التي لم أذق لها طعمًا في الحقيقة إلا لحيظات التقيتك هناك في مكانٍ غير المكان وزمانٍ غير الزمان، امتزجت

أرواحنا في معينٍ واحد، ثم صُبت في جسدين، حالت الحياة الحقيقية بينهما، ولكن جمعهما الوهم.

رأيت الأمل متجسدًا في وجهه المضيء، مد إليَّ يدًا من حرير ولكن عندما مسّها كفي تفلتت مني، فهويت في بئرٍ من الوحدة لا قرار له، يصم صدىٰ الصمت آذاني، وكنت أتوق لضجيج غضبه.

أحببته رغم اختلافنا، رغم استحالة اللقاء في منطقة وسطىٰ، تجمعنا في معينٍ واحد.

إيهٍ أيها الحبيب الغائب عن العين والساكن بين الضلوع، كم أحبك!

ارتج الألم في صدري عندما نطق بها لساني «أحبك»، خرجت من أعماق فؤادي، فانتحبت! بكيت كما لم أبك أحدًا في حياتي قط، دائمًا يطرق طيفه بابي عندما أشعر بالخوف من الحياة، وأتمنىٰ لحظة أمان.

«حازم» كان معيدًا بالجامعة، وحصل حديثًا علىٰ درجة الدكتوراة عندما كنت في عامي الأخير بها، انتقل إلىٰ جامعتنا قبل ذلك بعامين، جاء من أقاصي الصعيد، اجتمع فينا الضدان فانجذب كل منا إلىٰ الآخر كقطبي مغناطيس.

لكل حكاية بداية، وحكايتي بدأت معه وقد اقتربنا من الانتهاء.

في بداية العام الدراسي كان يُدرّس لي مادة علم النفس، أستاذ اشتهر بصعوبة امتحاناته وبأنه لم يجتز أحد اختباراته من الدور الأول إلا القليلين.

كنا نخشاه كخشيتنا قابض الأرواح، ورغم ذلك فقد عشقنا محاضرته، فقد كان قادرا علىٰ أن يأخذنا من عالمنا إلىٰ عالم آخر ويغوص بنا في أعماق نفوسنا، فنرىٰ فيها ما لم نكن نعلمه عنها، وجميعنا يحب الإبحار في النفوس، فيخرج لآلئها، ويكشف خباياها.

ويبدو أن أستاذنا هذا كان له من الخبايا ما تخجل منه الأنفس، فحامت حوله الشكوك، وتناقلت حوله الحكايات، وعندما ثبتت عليه الشائعات قرر مجلس الجامعة نقله إلىٰ جامعة أخرىٰ تأديبًا له، وكانت دفعتي هي المستفيد الأكبر من هذا الحدث، فلم يرسب أحدٌ منا في هذه المادة، وحصلت أنا فيها علىٰ تقدير امتياز، وقد كان هذا مستبعدًا تمامًا من قبل!

وقع الاختيار وقتها علىٰ «حازم» كي يكمل لنا ما بدأه سابقه، وكان علىٰ عكس الأول تمامًا، كان طيبًا رغم القسوة البادية في تعاملاته، ولينًا رغم شدة طبعه، اجتمعت فيه النقائض كلها، فصنعت منه إنسانًا مزدوج الروح!

ومنذ اللحظة الأولىٰ التي رأيته فيها، علمت أنه سيكون لي معه شأنٌ، إما أمل وإما ألم، وكان شعوري بالألم هو الأكبر، فقد كانت نبراته تقول إنه يكرهني، لم أعرف سبب تلك الكراهية، ولم أجد لها مبررًا، ولكنه شعورٌ سيطر عليّ إلىٰ أقصىٰ درجة، بادلته كرهًا بكره.

كان اللقاء الأول في قاعة المحاضرة، شاب وسيم معتدل البنيان ليس بالطويل ولا بالقصير، أسمر البشرة به لحية خفيفة، له عينان

حالمتان لكنهما غاضبتان طوال الوقت، لا يبتسم إلا في القليل النادر، جعل حائلًا من الود المختلط بالخوف بينه وبيننا، فقد كنا نخشاه إلىٰ حد الكراهية، ولكن كان شعورًا خفيًّا داخل كثيرات منا يحلم به كفارس أحلام.

لا يتأخر عن موعد المحاضرة، ومن لا يلتزم يُحرم منها، في ذلك اليوم كان يشرح وكنت نائمة، كنت قد سهرت الليلة السابقة أمام التلفاز لأشاهد فيلمًا أحبه، غرقت في النوم إلىٰ درجة أن صدر مني صوت والطلبة جالسين كأنّ علىٰ رؤوسهم الطير يستمعون إلىٰ جميل شرحه إلا أنا.

انتبهت علىٰ وكزات زميلتي الجالسة بجواري في خصري فإذا به أمامي مرسومة علىٰ وجهه أمارات الجدية وبعض غضب، قال بنبرة لاذعة مشوبة بسخرية:

- إنما جُعلت قاعات الدراسة للعلم لا للنوم يا آنسة!

عاد إلىٰ منصته دون أن يتيح لي فرصة تبرير موقفي، كرهته في هذه اللحظة لأنه أحرجني أمام الجميع، ووددت لو أقتص لنفسي منه، تخيلت أنني أهينه أمام الجميع وأغادر المدرج رافضةً علمه، تقلص الدمع في عيني ولم أسمح أن يغادر مدامعي، وإنما تركتها كبركانٍ يغلي في ضلوعي إلىٰ حين رد الإهانة فتهدأ حممه.

دعوت الله من كل قلبي أن أثأر منه، وقد منحني الله فرصة للثأر لنفسي، تغيبت عامدة عن محاضرته أسبوعين متتاليين، وفي الأسبوع

الثالث تعمدت أن أقف أمام المدرج ليراني عند دخوله، ويعلم أنني أرفضه، لا أدري لماذا كنت أشعر أنه يراقبني ويبحث عني بين الطالبات! أكانت أمنية؟ ربما.

لكنها تحققت كما تمنيتها فوجدته قادمًا نحوي يعاتبني علىٰ الغياب عن محاضرته، ويسألني إن كنت سأحضر هذه المحاضرة أم لا.

أخبرته بكل جرأة وصلف أني لن أحضر، بُهت من ردي، وشعر بالخجل أمام الطلبة، فذهب إلىٰ المحاضرة دون أن يعقب.

شعرت بعدها بالندم وعرفت كم أنا أفتقد الأدب، فتسللت إلىٰ المدرج من الباب الخلفي، وجلست أستمع إليه بأذنٍ غير الأذن وقلب غير القلب، وبعد أن انتهىٰ خرج ولم يلتفت إلىٰ أحد، لم يلتفت إليّ خلال الدرس مرة واحدة ولم يعرني أي اهتمام!

شعرت بالغيظ والندم لأني حضرت، فقد توقعت أن تبوح عيناه بكل ما تمنيته منه من قبل لكنه لم يفعل، بل تجاهلني كأنني لم أكن!

هدأت فورة الغضب وسرعان ما تسلل لدي شعور بالخجل، فرأيت أنه يجب عليّ أن أعتذر عن سوء أدبي، فذهبت إليه بخطوات خائفة.

وقفت أمامه أفرك يدي المرتعشتين، لأواري خجلي، كان بصره منكسًا إلىٰ الأرض، وهو يستمع إلىٰ ما أقول، وما أن انتهيت حتىٰ رفع إليّ عينين عسليتين تحمل الكثير من الرسائل المتضاربة، اخترقت

نظراته الجريئة والقوية روحي التي كانت تنتظره، صمت برهة مثبتًا عينيه في عيني فلم تصمدا أمامه طويلا وخارت قواهما سريعًا، وانخفضت إلىٰ الأرض، قال بعجرفة:

- اعتذارك مقبول يا آنسة.

وتركني وذهب، أشعل النيران في صدري ورحل دون أن يروي ظمأ روحي من جدب الوحدة والحرمان، دون أن يخبرني أنني الحلم الذي انتظره عمرًا بأكمله، دون أن ألمح في عينيه ذلك الأمان الذي بحثت عنه طويلًا في أعين من حولي.

رحت أهذي كمجنونٍ أثار خوفه صبية قذفوه بالأحجار وهم يلعبون.

قلت بصوتٍ مسموع رغم أنه لم يكن هناك أحد ليسمعه:

- ما الذي يقوله هذا الأبله؟! ماذا يظن نفسه؟! أنا اعتذرت لأني تربيت علىٰ ذلك! تربيت علىٰ أن من أخطأ عليه أن يعتذر!

هه، ما هذه العجرفة وهذا الصلف؟ لقد أخطأت بأن جعلت له شأنًا.

لم أدر ماذا أفعل، أخذت أتلفت حولي لأرىٰ إن كان هناك من شهد حماقتي أم لا، تجمعت بعض دموعٍ في عيني تريد الفكاك لكنني نهرتها فعادت من حيث أتت، كانت دموع خجل.

شعرت بالتفاهة، وأنا أبرر لنفسي اعتذاري لكن بداخلي شيءٌ يقول: «أنتِ كاذبة! اعتذارك كان له سبب خفي لا تريدين الاعتراف به».

ارتفعت حرارتي، وانغلق صدري من عجرفته التي لم أعرف لها سببا -هكذا قلت في نفسي- فإن كان يتمتع بمظهر أنيق فما أكثر المتأنقين حولنا! إن كان وسيمًا وقويًا وعنيدًا فأنا أكثر منه عنادا! شعرت أن حربًا نشبت، وعليَّ خوضها والانتصار فيها، للمرة الأولىٰ أردت وللمرة الأولىٰ سعيت نحو تحقيق إرادتي.

مضيت ساخطةً علىٰ نفسي وعليه، لكن عيناه لم تفارقاني، مرّت أيامٌ كنت ألمحه من بعيد فأتوارىٰ منه، كان الخجل يمزقني أكثر من الغضب، شعرت أنه كشفني وعلم أنّ اعتذاري لم يكن إلا كلماتٍ كتبتها في قصة حب تمنيت لو تبدأ.

مرّ العام سريعًا وكانت أيامه متأرجحة بين قبول يتبعه إقبال، ونفور سرعان ما يلحق به إدبار، فتارة كان يقبل عليَّ بكل حواسه وتارة يتجاهلني كأن لم أكن، كذلك أصبحت أنا غير واضحة المشاعر، أقبل عليه وأنفر منه، لكن في الخلف كان يتجلىٰ إليَّ شبح حكاية جميلة لم تبدأ بعد، حكاية نسجت فصولها في مخيلتي وأخذت أناور للوصول إليها، لكنني كنت حمقاء فلم أكن علىٰ قدرٍ كافٍ من دهاء التخطيط لحروب مثل هذه، فصرت أسير تبعًا للأحداث وتبعًا لمزاجه هو، فإذا أقبل أقبلت، وإذا أدبر نأيت ونفرت.

استمر الحال حتىٰ انتهىٰ العام الدراسي، وفي اليوم الأخير طلب الحديث إليّ، كان حديثًا طويلًا وجميلًا تمنيت لو لم ينته، طلب رقم هاتفي، وكانت الهواتف آنذاك منزلية، فلم تنتشر الهواتف المحمولة كانتشارها اليوم، كنت أنتظر مهاتفته بقلب شغوف، لكنه كان رزينًا عاقلًا، وكان راسخًا بدرجة قاتلة، قليل الكلام، قليل الاتصال، إذا تحدثنا أطلت معه في الحديث، وكان يرد بكلمات معدودة، لم يعترف أحدٌ منا للأخر بمشاعره، وإنما قالت عيوننا كل شيء، حتىٰ جاء اليوم الذي باح فيه بمكنون نفسه، وعندها بدأت المشاكل!

اتفقنا علىٰ اللقاء، اعترف بحبه الجارف، بكىٰ بين يدي، لم يبك الحب، وإنما بكىٰ ضعفه أمامي، كان صلدًا عنيدًا إلا في حبي! لم تنزله فتاة من قبل عن عرش خيلائه حتىٰ التقىٰ بي، شعرت أنه يصارع شعورين متضادين، حب جارف وكره عميق، أحبني بجنون، وكرهني بذات القدر من الجنون، كره حيرته وضعفه أمامي.

ثم أخبرني أنه مرتبط بكلمة شرف مع عمه منذ سنوات علىٰ أن يتزوج ابنته، صرخت في وجهه:

- وأنا!

قال بانفعال:

- أنت حبي الوحيد.

قلت مستنكرة:

- ثم؟

صمت طويلًا، ظننت بعدها أنه سيطوقني بذراعيه ليخبئني بين ضلوعه، لكنه قال بحسم:

- سأنفذ كلمتي وأتزوجها.

انتهت حكايتنا قبل أن تبدأ، هكذا خُيّل إليّ!

مرّ عام لم يعرف أحدٌ منا عن الآخر شيئا، دفنت حزني في صدري ولم أبح به لإنسان، حتىٰ جميلة صديقتي المقربة لم أخبرها بالأمر، ولأول مرة شعرت بالخصوصية عنها.

بعد عام عاد إليّ حاملا بين يديه لوعة واشتياق، باح وبحت بما تكبدناه من ألم الفراق، كانت سعادتنا تقدر بالأيام، وحزننا وفرقتنا تدوم شهورًا وسنينا.

رحت أتقلب بين لهيب فراقه ونعيم وصله، لم أستطع الكتمان فألقيت بحملي فوق كاهل صديقتي التي خانتني ونقلت له عني كلامًا لم أقله، وأفعالًا لم اقترفها، تركني وهو يعلم أنها كاذبة، لكنه تركني ليؤدبني علىٰ إثمٍ لم أعرفه، تركني جسدًا وبقي في قلبي وعقلي روحا. كانت الساعة تشير إلىٰ العاشرة مساء، عندما جفت مآقيّ ونضب الدمع فيهما، قمت إلىٰ الحمام لأغسل عن نفسي الهموم، توضأت وصليت، وبعدها رحت في نومٍ عميق.

في الصباح كان أحمد ينتظرني في المكان الذي اعتدت الانتظار فيه للركوب، كان عدد الواقفين قليلًا، فالوقت ما زال مبكرًا، خمسة أشخاص يقفون بعيدًا عن المظلة، يستدفئون بأشعة الشمس التي

أطلت علىٰ استحياء تشق لنفسها طريقًا بين الغيوم المتراكمة، يخبؤون أجسادهم تحت كومة من الملابس الصوفية تمنحهم الدفء والغموض، فالجميع يخبؤون وجوههم تحت «كوفيات» لا تبدي إلا عيونهم، فلا تكاد تعرف من الواقف ولا القادم، كان أحمد يرتدي سترة جلدية سوداء وسروالًا أسود، يلف حول عنقه «كوفية» من الصوف رمادية اللون وقفازات صوفية بنفس لونها، انتحىٰ جانبًا بعيدًا ووقف وحيدًا عندما لمحني من بعيد، أزاح طرف الكوفية عن وجهه حتىٰ أعرفه، وكنت قد عرفته من قبل أن يفعل ذلك.

كان اليوم باردًا والسحب المتراكمة في السماء تنبئ بسقوط أمطار، ورغم ذلك لم أشعر بتلك البرودة التي تجتاح الجميع إلا في تلك اللحظة التي أقبل فيها أحمد عليَّ يريد الحديث معي.

كنت أرتدي ملابس عادية ليست بالثقيلة ولا الخفيفة، لكنها لم تكن مناسبة لطقس اليوم، لم أنظر إليه وإنما وقفت في الجهة المقابلة، بعد لحظات أقبل عليَّ حاملًا خطابًا ثالثًا، كان يظن أنني سأفرح به، مدّ لي يده به وعلىٰ شفتيه ابتسامة مترددة، نظرت إليه بغضب، وقلت بحدة:

- ما دمت متزوجا ولديك ابنة، ماذا تريد مني؟!

تراجعت الابتسامة علىٰ وجهه وحل محلها الوجوم، خفض عينيه في حزن ثم رفعهما كأنما تجدد لديه الأمل، أشار بالخطاب في

يديه قاصدًا أنني إذا قرأت سأفهم الأمر كله، قلت بطريقة مسخفة للفكرة:

- لا أريد فهم أي شيء.

حاولت الابتعاد فاستوقفني ممسكًا بذراعي برفق، ثم وضع يده علىٰ صدره، كأنما يقول: «صدقيني» ويستعطفني أن أبقىٰ، نظرت حولي في قلق أرقب نظرات الناس، حررت ذراعي من بين يديه، وقلت بجدية:

- طلبك مرفوض، أنا لو فكرت في الارتباط، فلن أرتبط برجلٍ لديه زوجة وابنة.

ثم تركته وركبت أول سيارة أجرة وقفت كأنما كنت أنتقم لنفسي من حازم، لم أهتم لنظرة الأسىٰ والحزن الساكنة عينيه، لم أهتم لرعشة يده وهو يمدها بحكايته التي سطرها لي في خطاب ظنّ أنني سأتلقفه بتهافت الولهين، لم أعر شفتيه المرتعشتين والمحملتين بكلام لم ينطلق به لسانه -لعلّته- أي اهتمام.

تركته وأنا أعلم أنني أطعنه بذات الخنجر الذي طُعِنْتُ به من قبل، لم أسمع له ولم أعطه فرصة الدفاع عن نفسه.

وصلت إلىٰ المدرسة، فوجدت زميلتي سلمىٰ -الاختصاصية الجديدة- ثائرة وغاضبة، وعندما سألتها قالت كأنما تلقي علىٰ أذني كارثة:

- دخلت الحجرة، فوجدت نيفين وإيدن في وضع مخل!

تجمدت ملامحي ولم أعرف بماذا أجيبها، فأنا أعلم طبيعة العلاقة بين نيفين وإيدن -وإن كنت لا أرضىٰ عنها- لكنها واقعٌ لا أستطيع تغييره.

بعد لحظات صمتٍ حائر قلت بهدوء:

- لا تقلقي، سأحدثها في الأمر.

نظرت إليَّ ببلاهة غير المستوعب لما يجري حوله، وقبل أن تتكلم قلت لها:

- لكن أرجوكِ ألّا يخرج الأمر خارج حدود حجرتنا هذه، حتىٰ أرىٰ ما الذي ستقوله وتبرر به فعلها.

بدا لها الأمر مألوفًا لدي من رد فعلي الهادئ، فنظرت إليّ باستنكار مصحوب باتهام، وقالت:

- أنت علىٰ علمٍ إذًا بما يجري!

قلت مدافعة عن نفسي وعن نيفين:

- الأمر ليس كما تظنين، هذه الأمور تحدث دائمًا بين الأجانب بشكل طبيعي، ونيفين متباسطة ومتأثرة بطباعهم، أغلب الظن أنّ الموقف كان عاديًا وعابرًا.

ثم وضحت لها أنّ نيفين كبيرة وعاقلة بالقدر الذي لا يسمح لنا بالتدخل في شؤونها، وأن لا سلطان لنا عليها سوىٰ النصح.

بدأ الارتياح يتسلل إلىٰ وجهها مقنعة نفسها بما أقول، أو إن كان الأمر كما تظن هي، فعلىٰ أفضل الفروض أنني لا أرتضيه.

إذا توجست من أحد، فأشركه معك في جريمتك وهذا ما فعلته معها، حمّلتها مسؤولية الحفاظ علىٰ السر فأصبحت هي الأخرىٰ شريكة في التغطية عليه، لذا فقد تجنبت فتح الموضوع واكتفت بالنفور من نيفين والإعراض عنها، أما نيفين فكانت لا تبالي بأحد، ولا تبالي كيف يراها الناس، كل ما كان يؤرقها هو خوفها من ألا تصل إلىٰ حلمها المنشود، وهو الثراء والهروب من جحيم الوطن وقيود التقاليد.

دائمًا تكون نيفين مصدرًا للإزعاج بالنسبة لي، ولا أدري ما الذي يدفعني لتحمل حماقاتها، قد يكون الشعور بالمسؤولية، فأنا أكبر صُحبتنا بعد الأستاذ مصطفىٰ، يفرق بيني وبينه عام أو اثنين علىٰ الأكثر، أما نيفين وريهام فكانتا في أواخر العشرينات، وإيدن قد ولج باب الثلاثينات وخطا فيها أولىٰ خطواته.

تربط نيفين بإيدن علاقة عاطفية، علاقة لا أحبها ولا أرتضيها، لكن لا أملك منعها، فنيفين فتاة مصرية مسلمة -وإن كان اسما فقط- أما إيدن فهو رجل أجنبي قادم من دول أوروبا، تحديدًا إنجلترا، لا دين له، يعمل في مصر عدة أعمال في أماكن شتىٰ، مدرس للغة الإنجليزية في مدرستنا، ومترجم في أماكن أخرىٰ عبر الإنترنت.

تعرف علىٰ نيفين في عيادة طبيب نفسي كانت تعمل لديه قبل مجيئها إلينا، وكان «إيدن» يتعالج من آثار إدمان كاد أن يودي بحياته، ساعدت نيفين الطبيب النفسي في حالة «إيدن» بوجه خاص، ارتبط بها لما تملكه من عاطفة قوية وحنان افتقده في كل من كانوا حوله، فنيفين رغم جنونها وتمردها علىٰ أوضاعها كفتاة ريفية مسلمة، إلا إنها كانت تحمل بداخلها بذور نقاء وحب ومودة قذفتها جميعها في قلب «إيدن»، وأخذت ترويها حتىٰ تملكته، لم يقف الدين واختلاف الحضارة والثقافة في وجه حبهما، وإنما أكملاه ومارساه بكل ألوانه.

هجرت نيفين أهلها بحجة العمل في العاصمة لكنها لم تقطع علاقتها بهم كاملة، عاشت في دار للمغتربات ثم طردت منها لعدم انضباطها والتزامها بقوانين الدار، لم تجد مكانًا تلجأ إليه إلا أنا، استضفتها شهرًا ولم أكن أعلم طبيعة علاقتها بإيدن، حتىٰ عدت في أحد الأيام لأجدهما يتطارحان الغرام في فراشي، كانت صدمتي بها عنيفة، لكن ردة فعلي كانت عاقلة، فقد مررت بأمور أصعب من هذه بكثير في حياتي الماضية.

شعرت نيفين بوجودي فاضطربت وقامت علىٰ عجل تستر نفسها، لم أتكلم وإنما عدت وجلست في الصالة، كنت هادئة إلىٰ درجة أزعجتني!

أتت نيفين وعلىٰ وجهها ابتسامة تحمل شعورين متضادين، الأسف وعدم الخجل، قالت بطريقة رافضة لأي لوم:

- أنا وإيدن سنتزوج قريبا.

قلت بهدوء:

- إلىٰ أن تتزوجا، لا أريد أن يحدث ما حدث ورأيته مرةً أخرىٰ في بيتي.

سكت برهة ثم قلت بحسم:

- أو تبحثا لنفسيكما عن مكان يناسب علاقتكما!

رغم ضيقها من طردي لها بطريقة غير مباشرة إلا إنها تفهمت موقفي، ويبدو أنها تطبعت بطباع الأجانب في تقدير وجهات نظر الآخرين، لكنها استمهلتني حتىٰ تدبر لنفسها مسكنا.

رحلت بعد أسبوع من الواقعة وعلمت بعد ذلك أنها اقتسمت سكنًا مع فتاة هولندية، عرفها عليها إيدن وعاشتا معا.

الفصل السادس

تقبع حجرة المكتب خاصتي في آخر ممر يضم العديد من المكاتب الإدارية في المبنىٰ الرئيسي بالطابق الأرضي بعيدة عن الزائرين ولكنها لا تخلو منهم أبدًا، فمشاكل التلاميذ لا تنتهي.

حجرة متوسطة بها أربعة مكاتب حديدية وثلاث خزانات خشبية للأوراق، يتوسط الحائط المقابل لباب الحجرة نافذة عريضة تطل علىٰ حديقة المدرسة، وكانت الحديقة شديدة النضارة والتنسيق والجمال، فمعلمي مادة التربية الزراعية كانوا بارعين في الاهتمام بها، وكان مكتبي بجوار الباب علىٰ يسار الداخل منه، وفوق رأسي لوحة مرسومة مثبتة علىٰ الحائط، كانت اللوحة من رسم يدي، فأنا أحب الرسم والألوان، صورة طفلة تجدل لها أمها ضفائرها، طفلة في السابعة من عمرها، تلك السن التي تخلت فيها أمي عني، وتركتني لمصير مجهول.

مرّ يومان علىٰ حديثي مع سلمىٰ في موضوع نيفين التي لم أختل بها فيهما مرة واحدة، ولم نتواصل خارج أسوار المدرسة لانشغالها

المستمر وانشغالي بموضوع أحمد الذي أقض مضجعي ولم يعد لي شاغلٌ يشغلني غيره.

كانت حجرة المكتب هادئة وخالية عندما دخلت نيفين وعلىٰ وجهها علامات غضب، سألتها:

- ماذا بك؟

قالت بتأفف:

- لا شيء.
- وجهك يقول أشياء كثيرة.

لم تجب وتشاغلت بكراساتها، فقلت متسائلة:

- إيدن؟

رفعت وجهها، ونظرت من خلال النافذة شاردة الذهن.

شعرت أنّ الألم يعتصرها والحزن يملأ قلبها فقمت من مكاني واتجهت نحوها، مسحت بيدي علىٰ شعرها وظهرها وأنا أقول:

- ماذا بك نيفين؟ هل تشاجرت مع إيدن؟

تساقطت دمعتان علىٰ وجنتيها، ضممتها إلىٰ صدري فانتحبت، وبعد أن هدأت قالت:

- لو أملك لقطعت علاقتي به إلىٰ الأبد.

قلت متعجبة:

- وما يمنعك؟

سكتت، فأكملت:

- الحب؟

قالت بحدة:

- أنت تعلمين أنني لا أفكر في الحب.
- وماذا يجبرك علىٰ الاستمرار إذًا؟
- الحلم.

صمتت لحظة، ثم أكملت:

- أريد أن أكون ذات قيمة بين الناس، أريد أن أمتلك إرادتي، أريد الحرية.

قلت بغيظ:

- تريدين الانحلال.

علت ضحكتها والتي كانت لا تختلف عن ضحكات العاهرات في صالات الرقص، ثم قالت:

- سمّها كما تشائين.
- كيف استطعت أن تسلمي نفسك إلىٰ غريب عن وطنك وملتك؟

نظرت إليَّ بتعجب وقالت:

- لو أسلمتها إلىٰ واحد من بني وطني وملتي أكان هذا يرضيك؟

- لا، بل كان يرضيني أن تحافظي عليها ولا تمنحيها إلا لمن يستحقها.

ضحكت ضحكة عالية تحمل سخرية من كلامي:

- تقصدين من يدفع ثمنها.

- نيفين! الزواج ليس صفقة نُباع فيها ونشترىٰ!

- بل هو بيع مغلّف بغِلاف شرعي أنيق يمنحكم الرضا عن أنفسكم ويشعركم أنكم تنفذون أوامر الله، فأنتم ترضخون وتستسلمون إلىٰ كل ما يرتدي ثوب الألوهية، ذلك الصنم الذي نحتموه في صدوركم وقدستموه بدلًا من أن نقدس إراداتنا وقدراتنا.

كنت أستمع إليها فاغرة فمي ويشتعل الغضب في رأسي مما تقول، فقلت بذهول:

- أجننتِ؟

- جننت لأني أقول الحقيقة! أخبريني إذًا ماذا يعني أن يدفع رجل مهرًا ويأخذ عروسًا؟ أليس البيع والشراء هو أموال تدفع نظير سلعة؟ إن كنت ترضين أن تكوني سلعة تباع وتشترىٰ فأنا لا أرضىٰ.

قلت مستنكرة:

- هذا شرع الله يا مجنونة وليس بيعًا!

قالت ساخرة:

- الله! أين هو يا عاليا؟ أين الله مني ومنك؟ أين الله منا جميعًا؟ من أولئك الفقراء والمظلومين والمقهورين في كل بقاع الأرض، أين الله من أمي التي بذلت كل نفيس من أجل إرضاء أبي الذي لم يرض وألقىٰ بها في غياهب النسيان بعدما اعتصرها حتىٰ أضحت شبحًا يسير علىٰ الأرض؟

أين الله من ذلك الظلم الذي وقع عليّ مذ كنت طفلة يأبىٰ أبوها أن يمنحها أي حق من حقوقها في الحياة لمجرد أنها بنت وحيدة بين أربعة ذكور اتخذوا منها خادمة أو مستودع نفايات أخلاقهم؟! أين الله من المسلمين يا عاليا؟

تقولون إنّ الإسلام هو دين الله الأوحد علىٰ الأرض، ولو نظرت حولك لن تجدي إلا مسلمين مضطهدين في كل بقاع الأرض!

- لأنهم حادوا عن الطريق يا نيفين.

- هه، حادوا! هكذا أنتم دائمًا؛ تلوموننا علىٰ اتباع إرادتنا والتي هي دائمًا تخالف إرادة الله، ولم يستطع أحدكم أن يجيب نفسه ولو مرة واحدة علىٰ سؤال يجول في خواطركم جميعًا، لكنكم تنكرون، لماذا إرادة الله دائمًا ضد إرادة الناس؟! تقولونها لأنكم لا تملكون شجاعة الاعتراف بأن الله تخلىٰ عنكم.

- نقول! عنا! تتحدثين كأنك لست واحدةً منا!

سكتت وأشاحت بوجهها بعيدًا، فقلت بحدة:

- إلىٰ أين وصلت مع إيدن يا نيفين؟

قالت بهدوء وهي تخرج كتابًا مكتوبًا باللغة الإنجليزية وأخذت تتصفحه:

- إيدن ليس له علاقة بالأمر؛ هذه أفكاري أنا.

قلت كمن يعاير سارقًا بسرقته:

- من تبيع شرفها بوعود واهية لا أنكر عليها أن تبيع دينها بلا ثمن!

ضحكت باستهزاء ولم تجب، وظلت تحدّق في الكتاب الذي بين يديها، فشعرت بالدم يغلي في عروقي، فقلت بحدة:

- المدرسة ليست مكانًا لمطارحة الغرام يا نيفين! لقد افتضح أمركما أمام القاصي والداني ولن أستطيع الدفاع عنك بعد اليوم.

قالت بلا اهتمام:

- لم أطلب منك دفاعًا عني.

حدجتها بنظرة غاضبة، فأكملتْ:

- صدقيني يا عاليا، كل من يتكلمون عني يودون لو أنهم مكاني، وكل من يلبسون ثياب الشرف علىٰ حساب تعريتي ما هم إلا بغاة.

ثم صمتت لحظة، وقالت موجهة اتهامها إليّ:

- حتىٰ أنت يا عاليا، لو عانيتِ ما عانيت ثم مُنيتِ بما مُنيت به لفعلت مثلما أفعل.

أعادتني نيفين إلىٰ حياتي السابقة، إلىٰ أيامي التي فقدت فيها ذلك النور الذي أودعه الله قلبي وغذّته أمي وقت أن كنا معًا، ذلك الإيمان الفطري الذي يصاحب الإنسان منذ مولده يقبع في ناحية خفية كجذوة تحتاج إلىٰ من يشعلها فيستضيء بها، تخفت وتضيء من حينٍ إلىٰ آخر، فإذا خفتت تملّك القلب صقيعٌ جمّد الإحساس فيه، وإن اشتعلت سرىٰ الإيمان في العروق فعادت إلىٰ الجسد الحياة.

كان زواج أمي وأبي زواجًا تقليديًا لم يُبنَ علىٰ عاطفة مسبقة، وإنما نمت تلك العاطفة بعد الارتباط الشرعي كنتيجة طبيعية لعلاقة بدأت في النور، لكنها كانت في قلب أمي أكبر منها في قلب أبي.

كان الزواج قائمًا علىٰ اختيار الآباء الذي أساسه المادة وحسب، فأرادت أمي أن تجمّله بالعاطفة، فبذلت مع أبي كل ما بوسعها في ذلك الحين، تحملت غيابه لكنه لم يستجب لنداء قلبها فهجره وهجرها!

كان أبي يعمل في إحدىٰ دول الخليج، عاد محملًا بالمال ليكمل نصف دينه كأنما كان علىٰ يقينٍ أنّ نصف دينه الأول قد اكتمل!

خدع الجميع بسمته الجاذب لأي فتاة نشأت في بيتٍ يسعىٰ إلىٰ إرضاء الله، كانت أمي تطمح في الزواج من رجل يحمل قلب أبيها التقي، فقد كان جدي كما يقال عنه من أهل الله!

أثارت هذه العبارة في نفسي امتعاضًا لم أعرف له سببًا وقتها، وعندما كبرت علمت أنّ من يطلق عليهم هذا المسمىٰ إنما هم أناس مستهان بهم رغم ما يحملون في قلوبهم من نقاء. وهل يمارس المجتمع عنصريته وساديته إلا علىٰ هؤلاء!

وكانت أمي تحب أبيها وتوقره وترىٰ فيه صورة الزوج المثالي والأب الحنون، خالت أنّ الله رزقها بأبي ليحقق لها هذه الأمُنية، وافقت علىٰ عجل دون النظر إلىٰ ما خفيَ عن الأعين وظهر جليًا للقلوب الواعية، لم تهتم لما بين يديه من أموال، لفتت نظر جدتي فقط، وإنما استسلمت إلىٰ وهمها في الحياة المرجوة، أما هو فقدم لها الكثير من مغريات الحياة التي تسلب لب أي فتاة، وكان طبعه التفاخر بما يملك ويبدي بذخًا يثير الإعجاب، فشعرت أمي وقتها أنّ الله أعطاها أكثر مما كانت تحلم.

تزوجا سريعًا واستقلا بحياتهما معًا في شقة أنيقة في أحد الأحياء الراقية.

في بادئ الأمر أخبر أمي أنّ الشقة ملك له، ولكن الحقيقة تكشفت بعد عام من الزواج، فقد كانت إيجارًا لمدة محددة، خمسة أعوام بمبلغ ليس بالكبير، وكان يدفع إيجار عام كامل مقدما، فلم يلحظ أحد أمر الإيجار.

انتقلت أمي من الحارة الشعبية البسيطة لتعيش في الأحياء الراقية، ورغم الفارق الذي ترجح كفته ناحية الحياة الجديدة، إلا إنّ

أمي لم تكن سعيدة سعادة حقيقية، لم يكن هناك سبب واضح وجلي، وإنما شعور بالقلق ساورها طوال الوقت الذي قضياه معا.

مكث أبي معها بعد الزواج شهرين حاول أن يكون فيهما كما تمنت، فلعب دور الزوج والأخ والصديق، لكنه لم يستطع أن يلعب دور الحبيب.

روىٰ أرضها فأثمرت بي، سافر بعدها مدة طويلة، لا يصل لها منه سوىٰ كلمات عبر الهاتف وعلىٰ فترات متباعدة، أو بعض الأموال أو حكايات مسجلة علىٰ شريط «كاسيت»، يعلم تمام العلم أنها ستكون مشاعًا للجميع، فلم يرو ظمأها بكلمة حنونة تعينها علىٰ الصبر والتحمل، ورغم ذلك فقد تحملت البعد ومنّت نفسها بحلاوة اللقاء.

لم يرني أبي إلا من خلال صور، أرسلتها إليه أمي من حين إلىٰ آخر مصحوبة بخطابات تحمل بين سطورها لهفةً واشتياقا.

عاد وقد أكملت عامي الثاني، قالت لي جدتي إنه عاد شخصًا آخر غير الذي سافر، كما لو كانوا أبدلوه، عاد بقلب غير القلب، وعقل غير العقل، بل وجسد غير الجسد!

سافر فتىٰ يانعًا رقيق القلب وجميل البنيان، هادئ الطبع مهذب الجوارح، ثم عاد رجلًا جاف المشاعر، في قلبه غلظة وفي طبعه شراسة، تسلّط لسانه وأصبح لا يتكلم إلا بما يجرح أو يغضب، تدلىٰ

كرشه، وعظمت أفخاذه، وحملت أكتافه أرطالًا من اللحم، لم تكن أمي لتعرفه لولا أنه كان قد أرسل لها صورةً حديثةً قبل قدومه مباشرة.

خافت منه في بادئ الأمر، فهي لم تعتد عليه هكذا، بل إنها لم تعش معه القدر الذي يجعلها تشعر بأنفاسه قبل أن تراه بعينها، شعرت بالغربة بين أحضانه واتسعت الفجوة بينهما.

كانت إجازته طويلة بعض الشيء، مكث معنا عامًا كاملًا بدا خلاله الخلاف العميق والمتجذر بين قلبيهما، وبدأت المشاكل من الأسبوع الأول، وكنت أنا الشرر الذي انطلقت منه نيران الجحيم، كان فظًّا معي، لم تر أمي في عينيه لهفة الأب علىٰ ابنته التي لم ير مولدها، ولم تشعر منه بمسؤولية الأب تجاه الأبناء، شيئا فشيئا بدأ يتسلل إليها شعور أنه يشكك في نسبي إليه، لم يتفوه بهذا ولكن أفعاله قالت.

غضبت أمي لشعورها أنّ شرفها يطعن طعنًا خفيًا بلا بوح، ساءت أخلاقها معه، تمنّعت عنه طويلًا لفظاظته، ومات الحب الذي ادخرته وربته له طوال هذه السنين في لحظات! كما لو كان زرعًا خبيثًا أُمطر بماء آسن فاحترق.

حتىٰ رغبتها في أن تأتي لي بأخ يشد عضدي وعضدها فترت وما عاد لها وجود.

مرّ عام وصلت حياتهما فيه إلىٰ حافة الانهيار، لكنها تشبثت ببعض أمل زرعته جدتي في قلب أمي لعل الحال ينصلح.

كانت أمي دائمة التنقل بين بيت جدي في الحي الشعبي وشقتها في ذلك الحي الراق، وشيئا فشيئا اعتادت حياة الترف الذي نقلها أبي إليها، فبدأت تطيل المكوث في بيتنا وتقل منه في بيت أبيها، فلامها الجميع علىٰ ذلك لرفضهم أن تعيش وحيدة وزوجها في بلد بعيد.

عادت إلىٰ بيت أبيها مرغمة، وعندما كشفت أمر الإيجار لم تخبر أحدًا درءًا لمشاكل كانت في غنىٰ عنها.

كان بيت جدي بسيطًا، صغير المساحة لكنه متعدد الطوابق، ففي الأحياء الشعبية تتمدد المساحات رأسيًا وليس أفقيا ليتغلبوا علىٰ ضيق الأماكن المتاحة.

أربعة طوابق، كل طابق عبارة عن شقة صغيرة من غرفتين ضيقتين وصالة محدودة، ومطبخ لا يسع إلا الموقد والواقف أمامه، وحمام بالكاد يسع الشخص واقفًا أو جالسًا.

لأمي ثلاث أخوات وثلاثة إخوة وكانت هي الوسطىٰ، ورغم هذا الكم من البنات في بيتٍ واحد إلا إنّ البيت كان مهملًا وغير نظيف فقد اتصفن جميعهن بالكسل والتواكل، فكل واحدة كانت ترمي المسؤولية علىٰ الأخرىٰ، وفي النهاية تقع علىٰ عاتق جدتي.

وكانت جدتي سيدة بسيطة، أمية لكنها تبدو مثقفة، تلك الثقافة المجتمعية التي تكتسبها من الحياة ومشاهدة التلفاز، لكنها لم تكن جميلة، بل كان بها بعض دمامة.

سمينة، قصيرة، حادة الطبع لكنها حلوة اللسان، أما جدي فكان وسيمًا إلىٰ درجة تجعل الناظر يتعجب لاجتماع النقيضين، وورثت أمي وإخوتها الجمال كله من أبيهم إلا الصغيرة فيهم، فقد ورثت دمامة أمها وحدة طبعها.

عندما دخلت المدرسة كنت أعيش مع أمي في شقتنا الأنيقة، وكان لديّ شعور بالثقة والتميز وقتها، فبيتنا جميل ونظيف وكذلك شكلي وثيابي، كذلك أمي كانت كقطعة البسكويت التي تعجب أي إنسان.

كانت أنيقة ورقيقة، شديدة الثقة في جمالها وأناقتها، وكنت أستمد تلك الثقة منها، فأفعل مثل ما تفعل، أقف أمام المرآة أطالع وجهي وقوامي، أنتقي ثيابي بعناية وأهتم بنظافتها وأناقتها، أشاركها في وضع المساحيق علىٰ وجهي، كما تفعل هي.

كل شيء، كل شيء كنا نفعله معًا، فقد اكتفت كل واحدة منا بالأخرىٰ وما عاد يهمنا أحد من العالم، وعندما طلقها أبي لم تخبر أهلها بتطليقها، بل ولم تتحدث معهم فيما بعد عن أسباب طلاقها، وإذ سألها أحدهم -وما أكثر من سألوها وخاصة جدتي- كانت تجيب إجابة واحدة «قدر الله وما شاء فعل»، ثم تنتقل بالحديث -وكانت بارعة في ذلك- إلىٰ مواضيع أخرىٰ تنوعت بما يتوافق مع السائل، فإن كان السائل جدتي كانت تبادر إلىٰ سؤالها عن تناول أدويتها في المواعيد المحددة، وتهتم بذلك وتكرر سؤالها مرات ومرات، فقد كنا

نعلم جميعًا أنّ جدتي تعاني من نسيان ملحوظ، وإذا كان السائل جدي كانت تبدي اهتمامها بالسؤال عن صحته وأخبار المعاشات، وتحثه علىٰ العناية برفيقة دربه -تقصد جدتي- والحرص علىٰ التأكد من تناولها الأدوية في مواعيدها.

وهكذا كانت أمي، لا تترك مساحة فراغ طوال فترة بقائنا في بيت جدي لأحد يمكن من خلالها أن يكرر سؤاله عن مبررات طلاقها.

لم تشأ أمي أن تخبرهم أن أبي تزوج في البلدة التي سافر إليها وعندما علمت أمي بذلك رفضت أن تكون لها ضرة، فطلقها لتكون حرة، وأخبر أهلها بذلك، لكنه في الحقيقة أراد إذلالها، فقد حرمها وحرمني من كل شيء، حتىٰ الشقة التي شهدت مولدي وسنواتي الأولىٰ رفض تجديد عقدها، وجددته هي رغمًا عنها.

ضاق بنا الحال بعد أن أتت علىٰ مصاغها بأكمله، فأكلنا به وشربنا، واضطرت أمي إلىٰ البحث عن عمل وليتها ما فعلت، فلولا ذلك لظلت معي وظللت أنا في أحضانها.

انتقلنا للعيش نهائيًا في بيت جدي بعدما أنهكتنا الحاجة، بكيت بكاء مريرًا كأنما فقدت عزيزًا، لم أكن أحب بيت جدي لولا أنّ زياراتنا كانت قليلة ونادرة، فكنت أتحمل ساعاتها علىٰ مضض، أما الآن فقد أصبح هذا البيت هو مكان إقامتي الدائم، فقد نقلت أمي متاعها كله إليه وفرشته في الطابق العلوي، ولم يكن هذا الطابق مجهزًا تجهيزًا جيدًا، إذ كان سقفه من الخشب وجدرانه مطلية بالأسمنت،

ذلك اللون القاتم الذي يشبه جدران السجون في قتامتها ووحشتها وإضاءته القاتمة والمخيفة أجهدت بصري وملأت قلبي بالكآبة ولكن وجود أمي معي كان معينًا لي على التحمل رغم أنني لم أكن راضية أو سعيدة.

مرت الأيام ثقيلة لاحظت فيها أن أمي تطيل الحديث في الهاتف مع أحد لا أعرفه، وهذا الشخص رجل وليس امرأة، هكذا حدثتني نفسي رغم أنها راعت ألا تتكلم أمامي نهائيًا.

أصابني خوف شديد من شيءٍ لا أعرفه، أصبحت لصيقة بها في كل مكان، لم أسمح لها بالاختلاء مع نفسها، حتى زارنا رجل غريب بعد مدة ورأيتها وهي تستعد للقائه بأبهى زينتها، كنت صغيرة لكنني فهمت من الوهلة الأولى أنّ هذا الرجل سيكون له مكانًا بيننا، مكان لم أعتده، بل لم أحبه، فأنا لم أحب وجود أبي بيننا، وعلمت أنّ هذا الرجل سيكون بديلًا عن أبي.

كان رجلًا وسيمًا أجمل من أبي، وأظنه من طبقة مختلفة عن الطبقة التي نشأ فيها أبي، فأبي كان فظًا، غليظًا لا يعرف إلا أن يلبي احتياجاته هو، لم يكن يحترم أمي أو يعمل لها حسابا، كان يشعرها دائمًا أنه صاحب فضل عليها، كان يرى جمالها ثمنًا بخسًا مقابل ما قدمه لها، وهي كذلك، كانت ترى جمالها أكثر بكثير مما قدمه لها، أما هذا الرجل فكان مختلفًا، استطاع أن يعبد طريقًا كان بالأمس شائكًا إلى قلب أمي، ثم اقتحم أسواره وبنى لنفسه فيه قلعة منيعة، أحبته هي

حد الجنون، كنت أرىٰ ذلك في عينيها، أما أنا فلم أحبه وهو أيضًا لم يحبني، لقد قرأ مشاعري في عيني في أول لقاء، فعلم أنني سأكون حجر عثرة في طريقه إليها، لم يشغله شأني كثيرًا، ما دام قد امتلك قلبها، لكنه كان يوهمها بغير ذلك عندما يلاطفني أمامها، فيحضر لي الحلوىٰ وعلب البسكويت والشوكولاتة، لكنني كنت أرفضها منه، وألقي بها بعيدًا أمام عينيه، فأرىٰ الغيظ يتقد فيها، وكان يبتسم ابتسامة صفراء ويربت علىٰ كتفي ويمسح علىٰ شعري استمرارًا في مسلسل الزيف الذي بدأه فأزيح يده بعيدًا عني وأرسم علىٰ وجهي علامات النفور والامتعاض، وكنت أختلس لحظاتٍ تكون أمي ملهية عنا فيها، فأخرج له لساني إمعانًا في احتقاره، لكنه لا يبتسم ابتسامته المقيتة تلك في غيابها، وإنما يرمقني بنظرة تخيفني وتجعلني أتقوقع علىٰ نفسي وأشعر بضعفي ولا أجد من أستمد منه قوتي، فالجميع يرحب به، الجميع مبهورون به، الجميع يحبونه إلا أنا.

وبدأت أمي تعنفني وتعاقبني، لم تكن تفعل ذلك من قبل، لكنها الآن تفعل!

كان هو السبب في كل ما حلّ عليّ من خراب ودمار، نعم، فقد كان كقنبلة هيروشيما التي دمرت الماضي والحاضر وشوهت المستقبل.

لم أر في أفعالي معه أي خطأ، بل لم أرها من الأساس، لم أر إلا وجهه القميء الذي يتوعدني دائمًا، وكنت كلما عاقبتني أمي ازددت

عنادًا وكرهًا له وساءت أخلاقي مع الجميع، وبدأوا يضجرون مني، وأصبحت أنال اللوم والتقريع من الجميع وشيئًا فشيئًا بدأ السباب ثم الضرب.

كنت أرىٰ في وجه أمي شعورين متناقضين عندما أغيظها في شيء وكان هذا يسعدني جدًّا، فإن لم تستطع أن تحصل علىٰ حقك لا تجعل سارقه ينعم به، وهذا ما فعلته معهما، لقد سرق أمي مني فقلبت حياتها رأسًا علىٰ عقب، فذلك الغضب الشديد الذي كنت أراه في عينيها حيال إغاظتي لهما كان يكبر إلىٰ الحد الذي يجعلها تقتلني لو أطاعت شيطانها، وكان ذلك الشعور يسعدني جدًّا لأنني أعلم أنها لن تستطيع فعل شيء، وسرعان ما تنهمر من عينيها دموع الحزن والألم وقلة الحيلة فأضحك في سري منها، وفي قرارة نفسي أحزن لأجلها، لكنني لا أرحمها! فبيدها كل شيء، تستطيع أن تعيد حياتنا إلىٰ ما كانت عليه، تستطيع أن تعيدني إليها لكنها لم تفعل، ولم تعرف كيف ترضيني، ولا كيف تحافظ عليّ، رفضت أن أكون جزءًا من حياتها وكنت من قبل كل حياتها.

جاء يوم الزفاف، وفي الأيام السابقة له كانت أمي تعمل كل ما بوسعها لإرضائي وإسعادي، فهيأتني إلىٰ أننا سنعيش معًا في بيتٍ واحد، وأخذت تمنيني بما لم يسمح زوجها الجديد به، وعدتني أن تكون لي حجرة خاصة مملوءة بالألعاب والمرفهات، لكنني لم أجد إلا حجرة لم يكن لي فيها سوىٰ سرير، أقل بكثير من سرير ابنته!

آه، نسيت أن أخبركم أنه أرمل ولديه فتاة في مثل سني.

أحضرت لي أمي فستانًا باهظ الثمن يشبه فساتين العرائس، لونه أبيض ومصنوع من «الدانتيل والشيفون»، ومزين بحبات الخرز الأبيض و«الترتر» الفضي، كان يشبه فستانها كثيرًا، رأيت أمي للمرة الثانية بثوب الزفاف وكنت قد رأيت صورة زفافها الأول من قبل، رأيتها بين يدي أبي، كما هي اليوم بين يدي ذلك الغريب.

لم يكن هناك كثير من الصخب، لكن البيت كان ممتلئًا عن آخره بأناسٍ أعرف بعضهم ولا أعرف أكثرهم، رفضت ارتداء الفستان والتصقت بباب الغرفة التي تجلس فيها أمي مع عريسها يتبادلان الضحكات ويشربان كؤوس الشربات، كنت أطل برأسي عليهما بعينين دامعتين وقلب منفطر ووجه لائم مكتئب، هو يحتضن ابنته ويلاعبها ويبتسم لها، والفتاة سعيدة، لم تكن مثلي خائفة! وكانت أمي تداعبها وتحتضنها لكنني أعلم أنّ قلبها يعتصر حزنًا وألمًا عليّ، فإذا أطلّت بعينها نحوي تبدل وجهها من السعادة إلىٰ الحزن والألم وكان هذا يسعدني، فتقول عيونها: «سامحيني يا ابنتي»، وتقول عينَي: «لن أسامحك أبد الدهر»، فقد أقسمت أن أعاقبها علىٰ تخلّيها عني برفضي لها ونفذت العقاب.

الفصل السابع

لماذا أعدتِني يا نيفين إلىٰ كل هذه الذكريات المقيتة التي أكلت روحي؟ وما بقيَ لي منها سوىٰ شبح يتفرس في الوجوه، لعلّه يجد فيها من يعيد إليه الحياة.

كنت قد رجعت إلىٰ البيت محملة بكآبة الذكرىٰ وبؤسها، تأكل الأفكار رأسي وتلوك خيباتي واحدة تلو أخرىٰ ثم تقذفها في وجهي لتخبرني أنني لا أملك قرارًا أو إرادة.

لم أنتبه إلىٰ ما هو حولي، سرت بالية منتظمة، كمن ضبط نظامه للسير في خط مرسوم لا يحيد عنه ولا يلتفت، رُحت أنهب الأرض بأقدام لا تشعر بالألم، قطعت المسافة من المدرسة إلىٰ البيت في ساعتين، ساعتان من الزمان تتفتح فيهما أبوابٌ للذكرىٰ، كنت أظنني قد أغلقتها، والحقيقة أنني أغلقت روحي عليها فما عادت تغادرني وما استطعت طردها.

انتظرني أحمد كثيرًا، علمت ذلك عندما وجدت رسالته ملقاة علىٰ الأرض في مدخل الشقة، يبدو أنه قد أزاحها من تحت عقب الباب، أخذتها بيد واهنة ونفسٍ محبطةٍ محطمة، لم أتلهف لقراءتها،

فقد كانت روحي جزعة ولا أريد المزيد من الألم، وضعتها كما هي علىٰ منضدة بحجرة نومي، كنت متعبة إلىٰ الحد الذي جعلني أنام دون أن أشعر ودون أن أبدل ملابسي.

عندما استيقظت في المساء كان الظلام يحيط بي من كل مكان، بحثت عن هاتفي وأضأته، ثم وثبت عن فراشي وأشعلت مفتاح الكهرباء لأطمئن أنها لم تكن مقطوعة، فمنذ أن فقدت حضن أمي وأنا أخشىٰ الظلام.

عندما ملأ الضوء الغرفة وقعت عيناي أول ما وقعت علىٰ رسالة أحمد، كانت ما تزال ساكنة في مكانها تنتظر متلهفة من يفك شفرة حروفها، تجاهلتها للمرة الثانية وتوجهت إلىٰ الحمام، اغتسلت لأزيح عن كاهلي ألم سنين مضت، كنت أحتاج إلىٰ لحظة أتوجه فيها إلىٰ الله كي يطهر روحي مما علق بها من حزن وألم، كان هناك شيء يمنعني، وجدت صعوبة في أداء الفروض التي فاتتني دون أن أشعر، أو دون أن أكترث لها!

فرشت مصلاي ووقفت صامتة، عيناي لم تغادرا موضع سجودي، يداي معقودتان أمام صدري كأنما أقبض علىٰ قلبي ليبقىٰ ساكنا، لساني عاجز عن التلاوة، وقلبي عاجز عن الخشوع، وروحي عاجزة عن التحليق في سماء الورع، أي بؤسٍ أصابني؟!

لعنة الله عليك يا نيفين لماذا ظهرتِ في حياتي؟ لماذا عرفتك؟ لماذا أحتمل وجودك في حياتي حتىٰ الآن؟

دون أن أشعر بكيت، سالت دموعي دون أي مقاومة، تركتها تجري على خدي حتى شعرت ببردها يطفئ لهيب الخوف في صدري ويشعل الأمل والرجاء من جديد، ما زلت واقفة، يداي معقودتان، مطبقة الفم، مغمضة العينين، تسيل الدموع على وجنتيّ، لم أدر كم مر من الوقت، لم أنتبه إلا وآهة تخرج من أعماق فؤادي فشقت السماء كأنما تستغيث بربها ألا تتركني لشيطاني.

بدأت أتلو الآيات، تخرج الكلمات من فمي رطبة ممزوجة بحشرجات لعابي ومخاط أنفي ودموعي، تلوت وتلوت وتلوت حتى هدأ الحزن في قلبي.

بدأت أعي ما أقول، مسحت وجهي بطرف حجابي وأكملت الصلاة، جلست بعد التسليمتين هادئة النفس، تخرج من صدري بين الحين والآخر تنهيدة مرتعشة، يعرف من يسمعها أنها إثر بكاء طويل.

أخرجتني قرقرات معدتي من حالة السكون تلك، فقمت أبحث في الثلاجة عما يسكتها، وجدت بقايا خبز وقطعة جبن وكوبًا من اللبن، كان هذا كافيًا ليقيم أودي، شعرت بالبرد يجتاح جسدي فجلست في منتصف سريري، مخبئة نصفي السفلي تحت غطائي وواضعة فوق أكتافي شالًا من الصوف لونه أسود، ووضعت صينية الطعام على رجلي وخطاب أحمد بين يدي، وصوت أم كلثوم يصدح بجواري بأغنيتي المفضلة «بعيد عنك حياتي عذاب»، فهذه أغنيتي

المفضلة؛ كانت رسالة حازم الأخيرة لي قبل فراقنا الأخير، ومنذ ذلك اليوم وهي رفيقتي في الحزن والفرح.

فتحت الرسالة ورحت أقراها وأنا أقضم قطعة الخبز المحشوة بالجبن الأبيض، قال أحمد في رسالته:

«بسم الله الرحمن الرحيم

عاليا..

لا تتركيني، فأنا أحتاج إليك جداً أكثر مما يحتاج الوليد إلى أمه، لو تعلمين ما أحمله لك بين ضلوعي لركضت نحوي ركضا.

أعلم أنك ما زلت جاهلة أمري، تتساءلين من أنا؟ وماذا أكون بالنسبة لك؟

سأخبرك يا عاليا بكل شيء، فأنا جار قديم لك في «حارة مالك» لو تذكرينها، أعلم علم اليقين أنك لا تذكرينني، ولست غاضباً من هذا، فأنت لم تريني إلا مرات، ولا أدري هل علقت صورتي في ذهنك في مرة منهن أم لا، رغم حرصي على المرور من أمام بيتكم عشرات المرات في اليوم الواحد لعلي أحظى منك بنظرة وأنت واقفة في شرفتك، لكنك كنت دائما بعيدة، هناك في مكان آخر مع إنسان آخر، لا أعلم من هو، ولكني كنت أراه في عينيك، فأحببتك رغم يقيني أنك لا تبادلينني حباً بحب، بل كنت على يقين أنني أبعد من يكون عن الفوز بقلبك، لم تكن تسمح ظروفي وقتها أن أتقدم إليك وأخطبك كما لا تسمح لي نفسي أن أقيدك بوعد لا أدري متى سأفي به، فقررت السفر، وعندما عدت كنت محملاً بالأموال التي تكفي زواجنا وزيادة، لكنك أنت التي رحلت قبل عودتي، لم أعرف أين ذهبت، قيل لي إنك عدت إلى أبيك وأهلك بعد وفاة جدتك، ولكنني لم أتيقن من ذلك، بل لم أكلف نفسي عناء البحث، وذلك لأن أبي قد وضع في عنقي عهداً لم أستطع الفكاك منه، فقد خطب لي ابنة أخيه دون أن يستشيرني ليقينه أنني لن أخالف أمره، فتاة جميلة ومهذبة لكنني لم أحبها، وكذلك لم أستطع رفضها ووضع أبي في موقف حرج مع عمي، كان أبي شديد العشم بابنه الوحيد أنه لن يخذله، وما كان لي خيار إلا أن أكون جديراً بهذا العشم فوافقت، وتم كل شيء بيسر وسهولة، ووجدت نفسي في غضون شهور قليلة مسئولاً عن امرأة - لا أحمل لها في قلبي إلا مشاعر أخوية، كان الأمر شديد الصعوبة على نفسي، يتجاذبني شعوران أحدهما يناقض الآخر: شعورٌ بالنفور

منها وشعور الواجب واحترام كلمة أبي، لكنني في النهاية استطعت التغلب على نفسي واتخذتها زوجة، وكانت هي صابرة فلم تخبر أحدًا بما كان بيننا.

وبعد عامين، وجدت نفسي أبًا لولد جميل، ولد يشبهني ويذكّرني بطفولتي المحروقة وأحلامي الضائعة، أقسمت أن أجعل من طفولته حكايةً يتفاخر بها على مر العصور، كنت أخالك أمه يا عاليا، أمه التي تمنيت أن تشاركني سعادة تربيته والحفاظ عليه».

قطع رنين هاتفي استرسالي في القراءة، نظرت فإذا به «مصطفى» زميلي في المدرسة، حاولت تجاهله لكنه ألح في الطلب، لم يكن معتاد الاتصال بي إلا في الأمور الهامة لذلك أجبته في المرة التالية التي اتصل فيها.

- ألو.
- ألو.
- أهلًا مصطفى.
- أهلا بك يا عاليا، هل أنت مشغولة؟
- لا، أنا متفرغة، ماذا تريد؟
- أريد الحديث معك.
- تفضل.
- ...
- مصطفى! لماذا أنت صامت؟ تكلم فكلي آذان مصغية.
- لا أدري من أين أبدأ، ولكن...
- تكلم يا مصطفى فقد أقلقتني.

- لا داعـي للقلـق يـا عاليـا، فـالأمر لا يسـتحق، أردت فقـط أن أتحدث إلىٰ إنسان قريب مني، وعندما بحثت لـم أجـد سـواك أقرب إلىٰ نفسي.

- ...

- عاليا، أنا أمر بظرف عصيب، أمرٌ لـم أمـر بـه مـن قبـل، شـعور يجتاحني حتىٰ كاد أن يعصف بي ويقذفني في عالم الجنون.

- ما بك يا مصطفىٰ؟ أنت تخيفني!

- أنا أحب.

اتسعت عيناي مـن خلـف الهـاتف وخفـق قلبـي سـريعًا، لا أعلـم لماذا، وداهمت شفتاي ابتسامة وجلة وقلت في تردد:

- مبارك يا صديقي، ومن تكون سعيدة الحظ؟

سكت هنية، سمعت خلالها صمته يؤنبه أنـه تكلـم، ثـم قـال بعـد تردد:

- زميلة لي في الجريدة.

عـادت ملامـح وجهـي إلـىٰ مـا كانـت عليـه قبـل اتصـاله وقلـت محاولة اصطناع السعادة من أجله:

مرحىٰ! مرحىٰ يا صديقي، ها قد وقعت في الفخ وكنـت مـن قبـل تعيّر المحبين.

قال بأسىٰ:

- نعم يا عاليا، لقد وقعت في الفخ.

ساءتني نبرته الحزينة، وأثارت بداخلي الفضول، فقلت مواسية:

ما بك يا مصطفىٰ؟ الحب شعورٌ جميلٌ يملأ صدورنا بالسعادة، فلماذا أنت حزين؟

أجابني صمته، فأردفت متسائلة:

- هل هو حب من طرف واحد؟

قال متعجلًا:

- ليته كذلك.

قلت متعجبة:

- وماذا إذا؟!

طال صمته قليلا ثم قال بحزم:

- إنه حبٌ آثم يا عاليا! حبٌ ما كان عليّ اقتناصه، ومغامرةٌ ما كان عليّ خوضها، لكن القلوب لا سلطان لنا عليها، فهي تسيّرنا ولا تخيرنا، تميل بنا حيث تريد، لا حيث نريد!

قلت بقلق:

- لا أفهم يا مصطفىٰ! ماذا تقصد بقولك إنه حبٌ آثم؟

تنهّد تنهيدةً شعرت بلهيبها يلفح وجهي، ثم قال:

- هي زوجة وأم!

أُسقط في يدي ولم أستطع الرد، فأكمل هو:

- والآن هي تحمل في أحشائها ثمرة خطيئتنا.

خرجت مني شهقة لا إرادية قطعتها بأن أطبقت يدي علىٰ فمي لأحبسها في جوفي وبداخلي صرخة تريد أن تشق عنان السماء، أقول في نفسي: «حتىٰ أنت يا مصطفىٰ!». فتجيبني نفسي: «ولِمَ لا؟».

حاولت أن أتمالك روحي، فلم أستطع، كان الخبر أكبر من قدرتي علىٰ التحمل، لم أتكلم، وإنما تركت له أذني يبثها شجونه وروحي سابحة في عالم آخر، عالم مليء بالألم والذكريات الكئيبة.

حكىٰ مصطفىٰ عن بداية الحكاية وأول لقاء، وكيف تسلل إليه حبها دون أن يشعر، بدأ حديثة في حزن وشجن، ثم أنهاه وقد استعاد ذكريات جميلة ملأت نفسه بالسعادة والأمل، كنت أريد أن أسأله كيف حدث ما حدث، ولكني استحيت وتركته يثرثر ويثرثر، يضحك تارة ويتصنع الأسىٰ تارة أخرىٰ، وزالت نبرة الألم والحزن التي بدأ بها حديثه، وحلّ محلها هيامٌ عجيب، كنت أجيد الاستماع لذلك، ولم أتعجب من أنه بحث في قائمة صداقاته فلم يجد إلاي يبثها شجونه.

ظل مصطفىٰ يحدثني ساعتين كاملتين، نسيت خلالهما أمر الرسالة، وبعدما أنهيت معه وجدت نفسي أغط دون أن أشعر في نومٍ عميق.

كان اليوم التالي عطلة نهاية الأسبوع، استيقظت كعادتي مبكرا، كنت في حالة من النشوة والسعادة لم أعرف سببها ولكنني كلما استعدت نشاطي يلوح لي طيف حلم كنت غارقة فيه ليلة أمس، حلم

جميل كلما تذكرت أحداثه التي توالت عليّ تترا واحدة تلو الأخرىٰ، اتسعت لها ابتسامتي وعلا خفقان قلبي انتشاء.

كان حلمًا عاطفيًّا عشت فيه لحظات من السعادة مع إنسان لم أذكر ملامحه، ولكن مع الوقت بدأت تجلو لي شيئًا فشيئا، فإذا به في النهاية مصطفىٰ!

امتلكني شعور غريب؛ خليط بين السعادة والتعجب، لكنني في النهاية شعرت بالرضا.

كانت رسالة أحمد ما زالت بجواري، لم أتم قراءتها، وضعتها بهدوء علىٰ المنضدة، كأنني أعتذر لها علىٰ إهمالي إياها علىٰ وعد أن أكملها وأنا أتناول الفطور.

ظل أثر الحلم مصاحبًا لي طوال اليوم، حاولت ألا أسمح لأي شيء أن يعكر صفوي، حتىٰ «مدام تهاني» التي اعتادت أن تقضي وقت فراغها معي دون الاعتبار برغبتي في استضافتها من عدمها، كانت تعلم أنني لا أستطيع جرح مشاعرها أو إساءة مقابلتها، وهذا جعلها تطمئن أكثر وأكثر، بل إنها شعرت مع الوقت أن وجودها معي لهو تفضل منها عليّ كي تمنحني السعادة والأُنس بدلا من الوحدة والفراغ اللتان أعاني فيهما.

ظلت تثرثر كعادتها في أمور شتىٰ، وعلىٰ غير عادتي كنت أضحك من حكاياتها التي لم تكن مثيرة للضحك، لكنني كنت أضحك! أضحك من أعماق قلبي كما لو كنت متعطشة

للسعادة، شعرت لوهلة أنني أريد احتضانها ولكني تراجعت سريعًا عن هذا الشعور الأحمق.

استقبلت نميمتها بابتسامة راضية، أستمع إليها أحيانًا وأشرد منها أحايين، تستعيد ذاكرتي حلمي الجميل فأبتسم، تظن أنني أبتسم لها فتمعن في نميمتها وتزداد شهيتها في الغوص أكثر وأكثر في خصوصيات الجيران، أتساءل بيني وبين نفسي لماذا مصطفىٰ، فلم يربطني به سوىٰ صداقة تقترب إلىٰ مرتبة الأخوة، أستعيد صورته التي من فرط اعتيادي عليها ضاعت ملامحها من ذاكرتي، عقدت العزم أن أدقق في ملامحه في أول لقاء لنا في المدرسة لأرىٰ إن كان فيه ما يميزه حتىٰ إنني أراه في حلمي.

ضحكت من سذاجتي أو لعلني ضحكت من شيء آخر، شعور محير يلح في سؤالي

لماذا أنتِ سعيدة هكذا؟

لم أجد جوابا، أو لعلني لم أهتم أن أبحث عن جواب، فالإجابات لا تكون مريحة دائمًا، والأسئلة ليست مزعجة دائمًا، فبعض الأسئلة جمالها أنّ ليس لها من جواب، وكلما حيرتنا الإجابة يزداد السؤال إلحاحًا فيتغلغل في نفوسنا، يشعرنا بحيرة لذيذة، وتغمرنا سعادة خفية تملأ كياننا كأنما نلعب معًا «لعبة الغماية» ولا نريد إنهاءها، فأنا أعلم مكانك ولكن لا أريد إمساكك لأنني سعيدة بالبحث عنك، فهكذا أنا مع سؤالي

الجميل أنتشي كلما طرحته علىٰ نفسي ولا أهتم بالجواب عليه.

وجدت نفسي أقول بهيام: «هو شاب وسيم وبه جاذبية».

تصادف قولي مع حديث «تهاني» التي كانت تحكي فيه عن ابن جارة لنا في سن المراهقة، ويشاغل فتاة أخرىٰ في نفس عمره فوجدتها تؤكد علىٰ كلامي قائلة:

- حقيقة هو شاب وسيم وبه جاذبية، لكن البنت «قراشانة ووشها يقطع الخميرة من البيت».

كانت تتكلم عن الفتاة محدثة بوجهها تعبيرات تدل علىٰ اشمئزاز من صورة الفتاة القبيحة، ثم أردفت بعد أن أبدت تعجبها:

- لا أدري ماذا حدث لشباب هذه الأيام! أصيبوا في نظرهم وأصبحوا لا تعجبهم إلا البنات «المعصعصة».

ضحكت من كلمتها، فقلت لها مداعبة:

- أحسبك ترين له فتاة أخرىٰ مناسبة يا مدام تهاني.

ابتسمت ابتسامة رضا وقالت:

- لا ثانية ولا ثالثة هم لا يزالون صغارًا وسوف تتبدل مشاعرهم من عام إلىٰ آخر.

أغراها تجاوبي معها فوجدتها تسألني بتودد:

- أخبريني يا «أبلة عاليا» من أي البلاد أنت؟

فاجـأني سـؤالها وأخرجنـي مـن حالـة الرضـا التـي كنـت فيهـا وشعرت برجفة مباغتة في قلبي، وتغيرت ملامح وجهي رغم محاولتي الاحتفاظ بابتسامتي، وقلت بتلعثم:

- أنا من طنطا.

بدا علىٰ وجهها الفرح وقالت بسعادة:

- طنطا! إذًا فأنت من بلدي! من أين في طنطا؟

أزعجني ردها، فهذه هي المرة الأولىٰ التي أعرف فيها أنها من نفس بلـدتي، لا أدري لمـاذا يصـر الماضـي علـىٰ ملاحقتـي، حاولـت مراوغتها فسألتها:

- أخبريني أنت من أي البلاد في طنطا؟

قالت بثقة:

- من مدينة طنطا نفسها، وأنت؟

لـم أشـأ أن أكـذب، وفي الوقـت ذاتـه لا أريـد أن أقـول الحقيقـة، فقلت محاولة إبداء صدقي:

- أنا من السنطة.

فأسرعت قائلة:

- من أين في السنطة؟ لي أقارب فيها.

كان باديًا أنها تعرف محافظة الغربية كلها، ولِمَ لا وهـي مـن هـواة جمع الأخبار والتنقل عبر الزمان والمكان بكل ما أوتيت مـن وسـيلة،

كان لا بُدَّ أن أنهىٰ هذا الحوار السخيف، فأنا لم أخف من أحمد مثلما خفت من هذه الثرثارة، فقلت لها وأنا أهم بالتوجه إلىٰ المطبخ لعمل المزيد من الشاي:

- نحن أصلًا من الصعيد، وعشنا في السنطة مدة ثم عدنا إلىٰ الصعيد ثانية.

ثم سألتها:

- أتشربين الشاي أم قهوة؟

قالت متعجلة:

- شاي.

ثم أكملت متلهفة، وهي تلحق بي إلىٰ المطبخ:

- من أين في الصعيد؟ ليتك تكونين من المنيا، فأنا لي خال يعيش في المنيا في الصعيد، كم أتمنىٰ أن أزوره وأستمتع بمشاهدة الآثار هناك.

كانت سخيفة إلىٰ حد كبير، لم ينقذني منها سوىٰ رنين هاتفها، وكان علىٰ الطرف الآخر زوجها يستدعيها لتعود إلىٰ شقتها، فحمدت الله أن أنقذني من ثرثرتها وفضولها الذي لا أحبه.

خرجت مسرعة وصفقت الباب خلفها، ووقفت وحدي في المطبخ أرقب «براد الشاي» علىٰ النار والماء يغلي به كغليان الدم في عروقي من فضول هذه السيدة.

لم أجد لدي رغبة في طعام أو شراب، فأطفأت النار وذهبت إلىٰ فراشي حاملة في يدي رواية كنت قد بدأت قراءتها منذ أيام ورسالة أحمد التي توقفت عن قراءتها ليلة أمس.

أكملت قراءة الخطاب..

«وبعد عامين وجدت نفسي أبًا لولد جميل، ولدٌ يشبهني ويذكرني بطفولتي المحرومة وأحلامي الضائعة، أقسمت أن أجعل من طفولته حكاية يتفاخر بها على مر العصور، كنت أخالك أمه يا عاليا، أمه التي تمنيت أن تشاركني سعادة تربيته والحفاظ عليه، لكن الأحلام الجميلة دائما تنتهي بكابوس مزعج، مات ابني بين يدي ولم أستطع فداءه، سقط أمام عيني من إحدى الألعاب وكانت مرتفعة جدا، لم أستطع إنقاذه ولم تفارقني صورته وهو ملقى على الأرض سابحًا في بركة من الدماء، لم أحتمل الموقف ففقدت الوعي، وعندما عاد إليَّ وعيي كنت قد فقدت معه صوتي، قال الأطباء إنه خرسٌ مؤقت نتيجة تعرضي لصدمة شديدة، وسوف يعود صوتي مع الوقت، لكن هذا لم يحدث، فقد استمر غيابي عن العالم كله ولم أجد لدي رغبة في العودة إليه، لا شيء يجعلني أتمسك بالحياة، فأنا لست سعيدًا على أي حال، ولكن بعدما رأيتك يا عاليا أصبحت رغبتي في الشفاء أكبر من ذي قبل، أصبح لدي حلم أتمنى تحقيقه.

هل تقبلين يا عاليا؟ هل تقبلين أن تكوني حلمي الذي أتمنى أن أحققه وأظفر به؟

أرجوك لا تتسرعي في الرد وفكري جيدًا قبل اتخاذك أي قرار، فأنا أحبك».

أحمد

انتهىٰ خطاب أحمد ولكن لم ينته اندهاشي وحيرتي، أحاول أن أتذكر أي شيءٍ عنه فلا أستطيع.

الفصل الثامن

ظل مشهد سقوط ابن أحمد عالقًا في ذهني مذكرًا إياي بمشهد سقوطي من عين نفسي في بئر من التيه والجحود، بئر حفرته لنفسي ثم هبطت فيه بكامل إرادتي وقبعت في قاعه أندب حظي وأرجو من يأتي لينقذني.

«أنت قاتلة يا عاليا».

هكذا تصرخ نفسي بداخلي عندما أذكر ذلك الحدث الجلل، عشر سنوات لم يفارقني ذلك الحلم المخيف، كنت أراها تسقط من أعلىٰ لكنها تقبض علىٰ رقبتي فتأخذني معها، أنتفض من الفراش كانتفاض غريق أوشك علىٰ الهلاك فوجد من يدفعه إلىٰ أعلىٰ فيستنشق جرعة هواء تملأ صدره ليعود إلىٰ الحياة.

كنت قد انتهيت لتوي من امتحانات الثانوية العامة محطمة النفس والروح والبدن، أعاني سوء تغذية كما أعاني شعورًا بالوحدة وعدم الانتماء.

ليس لي أم مثل كل البنات تدعو لي وأنا في اللجنة، ولا أب ينتظرني علىٰ باب المدرسة حتىٰ أنتهي من الامتحان

فيأخـذني إلـىٰ أقـرب محـل عصـير ويطلـب لـي كوبًـا كبيـرًا بـاردًا أرطب به علىٰ نفسي.

أخـرج مـن المدرسـة وحيـدة كمـا أحضـر لهـا وحيـدة، وحـولي الفتيات يقفن مع آبائهن قبل الامتحان يشدوا من أزرهن.

تـدهورت حـالتي النفسـية حتـىٰ وصـلت إلـىٰ أدنـىٰ درجاتهـا، فالإنسان الذي يبذل كل جهده للوصول إلىٰ حلم ينشده ثـم لا يمنحه القدر فرصة الوصول وفرحة الانتصار لأسباب خـارج إرادتـه يصيبه الحزن والسخط ثم لا يلبث أن يمتزج حزنـه برضـا عـن نفسـه وتسـليم لقضاء الله وقدره، أما ذلك الذي لم يكلف نفسه عناء السعي ويظن أنـه سيحصد نجاحًا ثم يفاجأ بما كان يعلمه سابقًا لكنه لا يعترف به أنه لـن يحقق أي نجاح لكونه حبيس شعورين، الحـزن والندامـة، لكنـه يبـدي شعورًا آخر تمامًا موهمًا من حوله أنه ضحية، لكنه في قرارة نفسه يعلم أنه الجاني.

وأنا كذلك طوال حياتي كلها، يملؤني الطموح وأغرق في الأحلام لكنني لا أسعىٰ إلىٰ تحقيق أي شيء، فأظل حزينة علـىٰ مـا فـاتني ولـم أحصل عليه ونادمة علىٰ ما ضيعته من عمر راح هبـاء في أروقـة التمني والأحلام السعيدة بلا سعي أو مجهود، وفي النهاية أبكي حظي

وأندب أملي وأقول إني المعذبة مـن الخلائـق كلهـا، حتىٰ القـدر يعاندني ويكيل لـي الأحـزان حزنًـا فـوق حـزن، ويغرقنـي حتـىٰ كـاد أن يقضي علي.

كانت فترة الثانوية العامة من أصعب الفترات التي مررت بها طوال حياتي، إذ تدهور الحال بي وأصبحت غير قادرة على التحصيل، وبعد أن كنت من المتفوقات وجدت نفسي لا رغبة لي في بذل أي مجهود، لم يعد لدي شغف التحصيل والمنافسة والمناكفة، لم يعد لدي سوى رغبة واحدة وأمل وحيد، الاحتضان، نعم، أريد أن يحتضنني أحد، أريد أن أشعر بذلك الدفء الذي افتقدته منذ سنين، حضن أمي!

أصبحت أفكر فيها ليل نهار، أخالها وهي تحتضن أولادها من غير أبي، وأذكر يوم أن كنت وحدي فقط دميتها الجميلة، في البداية كنت أبكي عندما أتذكر تلك الأيام ولكن عندما كبرت تقلص الدمع في عينَيّ، ورغم الحنين الذي كاد يمزق فؤادي، أجدني أيضًا أشعر بالسخط إلى الحد الذي يجعلني لا أجيب نداءها عندما تتصل من البلاد البعيدة التي سافرت إليها مع زوجها وتركتني، أرفض الحديث إليها رغم اشتياقي إلى سماع صوتها، أرفض ثم أبكي اشتياقًا إليها، لا أدري ما الذي ينتابني في تلك اللحظات، أهو جنون أم جحود، أم كراهية اختلطت برغبة في الانتقام، نعم، كنت أنتقم منها بحرمانها من سماع صوتي، أو ربما كنت أنتقم من نفسي!

كانت خالتي الصغرى والتي تكبرني بعامين مخطوبةً في هذه الفترة، العجيب أنّ خطيبها كان شابًا وسيمًا وهي لم تكن على قدر

مناسب من الجمال، وكنت أتعجب ما الذي دفعه إلىٰ خطبتها وهو لا يكن لها أي مشاعر كما أخبرني!

هل قلت كما أخبرني؟! حسنًا، سأحكي ما حدث.

لم أكن علىٰ وفاق مع خالتي هذه منذ اللحظة الأولىٰ التي أدركت فيها معنىٰ الحياة، لم أعرف بالضبط من منا تغار من الأخرىٰ، كلتانا تملك ما حُرمت منه الأخرىٰ، أنا جميلة وكانت دميمة، وكان لديها أب وأم وحرمت أنا منهما، منذ أن انتقلت للعيش في بيت جدتي لم أعد أمتلك شيئا، ولم ألبس جديدًا إلا مراتٍ قليلة جدًّا، وإنما آخذ ما كان يضيق عليها أو تعافه نفسها، المهم أن يمر كل شيء عليها أولًا، وكانت جدتي تنهرها علىٰ أفعالها تلك، ولكنها لم تكن تنتهر، بل تتعمد أن تستمتع بكل ما هو جديد حتىٰ لو كان لي وحدي.

تمنيت من قلبي أن أنتقم منها، فأفعالها معي كلها سخيفة، أخذت مني كل شيء، كل شيء حتىٰ حسين حبي الأول، عندما لاحظت ما بي من هيام تجاهه عمدت أن تأخذه مني، ولَمَّا لم تستطع أن تستميله إليها عمدت لزرع الشك في قلبي تجاهه، فصارت تقص عليَّ قصصًا غرامية هو بطلها مع العديد من فتيات الحارة، وأنا أصدقها لأنني دائمًا لا أثق أنّ هناك شيء مخبأ من أجلي، لا أثق أنّ هناك من يحبني، أحببته في صمت، غرت عليه في صمت، تشاجرنا، تخاصمنا، تصالحنا ثم تباعدنا وافترقنا، كل ذلك في صمت، لم يعلم هو عنه أي شيء.

ورغم ذلك فقد اعتبرتها عدوتي التي سرقت حبي، أضمرت لها في قلبي رغبة في الانتقام، لم أكن أعلم أنّ الأقدار ستمنحني تلك الفرصة سريعًا، جاء ذلك الخاطب وانبهرتْ به، أحبته بجنون، ودَّتْ لو أتمموا الزواج سريعًا، ولكنها التفاصيل السخيفة والقصور المادي الدائم الذي يحول دون تحقيق الأحلام.

طالت مدة الخِطبة، لم أهتم بأمرها في البداية، بل كنت سعيدة أنها سترحل عن البيت، ولكن مع الوقت بدأت ألحظ أنّ خطيبها يرسل لي نظرات إعجاب وانبهار، تجاهلتها في البداية ثم أبديت امتعاضًا وتأففا، ولكن سرعان ما لاحت لي فكرة الانتقام فأعجبني الأمر وبادلته نظرات الإعجاب بنظرات استنكار ممزوج بالموافقة، شيئا فشيئا تحولت نظراتي إلىٰ إعجاب مماثل ثم حب ثم بدأ الكلام بيننا، ورغم أنها لم تسمح بانفرادنا معًا إلا إننا تمكنا من الاعتراف كلٌّ منا للآخر بإعجابه، بل وحبه وهيامه.

هه، حب! كانت هذه الكلمة أسهل ما يمكن أن يلفظ بها في مثل هذه المواقف، كلمة قليلة الحروف كبيرة المعاني، حاء وباء يحملان في طياتهما عهودًا ومواثيق، لم أكن في هذه السن علىٰ قدرٍ كافٍ من فهم تلك المعاني، ولكني كنت أطلق علىٰ أي إعجاب بأي إنسان لفظة حب، حتىٰ إعجابي بذلك المطرب الذي يسلب قلوب الفتيات شرقًا وغربا، قلت في نفسي إنني أحبه، «أحب» يا لها من كلمة!

أعود إلىٰ خطيب خالتي الذي صارحني بحبه، والذي أوشك نتيجة إلحاحي وإغوائي له أن يفسخ خطبته معها لولا أنها رأتنا ذات يوم بعينها وهو في بيتنا ليلتها، طلب الدخول إلىٰ الحمام ومكثت هي تنتظره في الصالون، وفي طريق عودته كنت أنتظره، فسلمني خطابًا زاخرًا بالأشواق الملتهبة، ثم أرسل لي قبلة في الهواء، كانت هي واقفة تشاهد ما يحدث بذهول فجن جنونها، أخذت مني الخطاب وقرأته وجعلت كل من بالبيت يقرأه، بل إنها من فرط جنونها قطعت شعرها ولطمت خدودها وخرجت إلىٰ الشرفة تصرخ بأعلىٰ صوتها تخبر من بالحي أنني أخطف منها خطيبها.

اعتزلت في حجرتي أيامًا لا أستطيع لقاء أحد أو النظر في عينَي جدتي التي أخذت تلومني لومًا حنونًا يحمل بداخله إشفاقًا، والتماس عذر لما أمر به من ظروف قاسية، كنت أتوجه إلىٰ الله في كل ليلة أن يسامحني ويغفر لي فعلي، لكن يبدو أنّ فعلي كان أكبر من أن ينسىٰ أو يغفر فنشبت مشاجرة جديدة بينها وبيني ضربتني خلالها ضربًا مبرحًا ومزقت ملابسي وقطعت شعري، بدا لي وقتها أنها تريد أن تسبب لي تشوهًا يذهب بذاك الجمال القليل الذي وهبنيه ربي حتىٰ نتساوىٰ، لم أفهم ما الذي دفعها لفعل هذا، ولكنني قضيت الليل كله أدعو الله أن يقتص لي منها، بل دعوت الله أن يأخذها فلا تفرح بزواج.

في الصباح استيقظت علىٰ صراخ يدوي في البيت والشارع، صراخ يوقظ الموتىٰ من قبورهم، جريت بلا وعي لأرىٰ ما الذي

حدث فإذا بها في منتصف الشارع ممددة تحت رأسها بركة صغيرة من الدماء، عيناها مفتوحتان عن آخرهما في ذهول وفمها به بقايا صرخة فزع لم تبرحه حتىٰ بالرغم من فقدان الحياة فيه، سقطت المسكينة من شرفة الطابق العلوي عندما كانت تضع ستارة جديدة فزلت قدمها، ولولا أنّ جدتي هي من كانت بجوارها في هذه اللحظة لظن الجميع أنني أنا من أسقطتها، ولكن الحقيقة التي لا يعلمها أحد حتىٰ هذه اللحظة هي أنني أنا حقا من أسقطتها، أنا من دعوت الله أن يقتص لي منها، أنا من رجوت الله أن يأخذها عنده لأنها تؤذيني، أنا من قتلتها!

الموت، ها هو ذا يطل برأسه من جديد، ذلك العدو الخفي، العدو الوحيد الذي تعرف حد اليقين أنك ملاقيه، وتعرف أيضا أنه منتصر عليك لا محالة، رغم أنه سيأتيك أعزل خاليًا من أي سلاح، ورغم ذلك يأتيك هادئًا، رزينًا، لن يذرف الدموع إشفاقًا عليك من ذاك المصير الذي ينتظرك، ذاك المصير الذي لا تريد أن تتخيله ولو في أبأس كوابيسك عندما تتبدل ملامحك ويذوي جمالك وتتسلل الحياة من بين خلاياك كلص يتسلل في الخفاء خشية أن يكتشف أحد أمره، عندما تنتقل من عالم الحقيقة إلىٰ عالم الوهم، عالم لا تعلم عنه شيئًا سوىٰ الظلام، ظلام القبر وظلام المصير، لا ترىٰ فيه إلا جيفة يتساقط منها الدود، أو عظامًا تحولت إلىٰ غبار، أو لعلنا نعيش الآن في عالم الوهم، وما ينتظرنا هناك هو الحقيقة بعينها، حقيقة أعمالنا، حياتنا، تجاربنا، حقيقة أنفسنا!

لـن يتـألـم المـوت حين يأتيـك مـن أجـل أولئـك الـذين سيبكون عليك لأنه يعلم أنهم لا يبكون إلا أنفسهم، فمنهم من يبكيه الحزن، ومنهم من يبكيه الخوف، ومنهم من يبكيه الإشفاق عليك، وكذلك سيكون منهم من يبكي لأن الجميع من حوله يبكي، فالبكاء والضحك هما انفعالان ينتقلان بالعدوىٰ تمامًا كالأمراض المعدية.

سـيأتيك المـوت علىٰ أي حـال، وسـتكون أنـت الخـائف والمضطرب الوجل، ستظل طوال حياتك تخشىٰ هذا اللقاء ولكنك أبدًا لن تعمل من أجله، تعيش طوال حياتك تستمع إلىٰ أهل الدين وهم يشحذون الهمم ليعدوك لذاك اللقاء، لكنك أبدًا لن تستعد له، فهذا هو حال الإنسان، الإنسان الذي خلق من النسيان حتىٰ يأتيه اليقين.

رأيـت المـوت يـأتي مـن جديـد حاصـدًا أرواح الصـغيرات، الجميلات والقبيحات علىٰ حد سواء، بعضهن تبكيهن القلوب قبل الأعين، وبعضهن تستريح الأرض من ضجيجهن، يستريح العالم كله من أنفاسهن، ولكن رغم حالة الرضا والسعادة الخفية التي تملأ قلبك من اختفائهن، لا يسعك إلا أن تبكي من أجلهن، تسامحهن، تغفر لهن كل شيء، كرههن وحقدهن، تأتي عليك لحظات تتمنىٰ فيها لو يعدن إلىٰ الحياة ثانية فتقبل رؤوسهن قبلة وداع، فالكل يغادر بلا وداع، دون سابق إنذار، أو لعلهم يودعون العالم كلٌّ علىٰ طريقته لكن لا أحد ينتبه إليهم، ثم لا تبقىٰ في ذاكرتك منهن ألا ومضات تأتيك سرعان ما

تبهت، لحظات حلوة أو مرة، إلا أنّ الصورة الأكثر ثباتًا في الذهن هي بقعة دم وجسد مسجىٰ.

كبرت جدتي بوفاة صغيرتها عشرة أعوام في عام واحد، لم أكن أعلم من قبل أنها تحمل لها في قلبها كل هذا الحب وهذا الحنان، وكذلك لم أكن أعلم من قبل أنها بهذا الوهن، فقد كانت هي الأمان الذي نلجأ إليه عندما تهب علينا سحائب الخوف، كانت الذراع القوية التي نستند إليها وقت الضعف وأصبحت اليوم تائهة! حزينة، تتعجل الأيام للقاء الأحبة.

بدت كما لو أنّ ليس لها من الأحبة سوىٰ تلك التي سقطت أمام عينيها ولم تستطع إنقاذها وزوجها الذي سبق ابنته بأعوام قليلة.

بدت وكأنها قد أصابها الشعور بأنها مذنبة، تمامًا مثل الذي أصابني، نحن الاثنتان عانينا الشعور ذاته، هي لأنها لم تحقق لها كل وسائل الأمان والحماية، وأنا لأنني طلبت من الله أن يأخذها عنده وقد استجاب لي!

استجاب الله لك يا عاليا! أخيرًا سمع نداءاتك الطويلة وأجابها، ولكن لماذا الآن؟ ألم يسمع إلا دعائي علىٰ تلك المسكينة؟! والآخرين؟! ألم يكونوا أجدر بالنظر في أمرهم؟! كل الذين آذوني في حياتي، أبي، أمي، زوج أمي، زوجة أبي، أبو جميلة، بل وجميلة ذاتها!

ابتعدت عن الله في هذه الفترة، فقد أصابتني الحيرة والخوف، كنت أتساءل من ذا الذي دعوت فاستجاب لي بهذه السرعة؟ أكنت أدعو الله أم أنني دون أن أشعر دعوت الشيطان؟

خفت من نفسي، من ذلك الشعور بأنني قاتلة، خفت من دعواتي السابقة ودعواتي المقبلة، انصرفت عن كل شيء، عن العبادة بكل أنواعها، بدأت تتسلل إلىٰ رأسي أفكار آثمة، مثل: «هل الله موجود حقا أم أنه وهم زرعناه في أنفسنا لنوجد لنا دافعًا للخوف»، فالإنسان يحتاج دائمًا إلىٰ الخوف، ذلك الشعور اللذيذ الذي يصيب الإنسان الخائف، الوجل، ذلك الشعور يدفعه إلىٰ الامتثال والطاعة وإلىٰ التذلل لما هو أقوىٰ منه كي يزيل عنه أسباب هذا الخوف.

لم أجد بجواري في هذه الأثناء سوىٰ جميلة أبوح لها بكل أفكاري ومخاوفي، وكانت هي بدورها تنهرني وتوبخني، تبدو وكأنها تساعدني علىٰ تخطي هذه الأزمة بأقل الخسائر، ولكن في الحقيقة أنها كانت تشجعني، تدفعني دفعًا نحو السير في طريق الهلاك.

أخبرتني أنني أفتقد إلىٰ الحب والحنان لذلك فأنا مضطربة، وعرضت عليّ أن أبدأ قصة حب مثل التي تعيشها هي.

كنت بحاجة إلىٰ خوض هذه التجربة، أخبرتني أنّ هناك من هو معجبٌ بي ويتمنىٰ لو أبادله نفس الشعور، دبرت لقاءً لنا، أنا وهي وحبيبها وصديقه، التقينا في مكان عام، حديقة ملحق بها «كافيتريا» للعشاق، كانت هذه هي المرة الأولىٰ التي أدخل فيها هذه الأماكن أو

أخوض فيها مثل هذه التجربة، وقد بقي علىٰ نتيجة الثانوية العامة أيام قليلة، وأنا أحتاج إلىٰ ترفيه من نوع خاص، التقينا واختلىٰ كل منا برفيقه، لم أعرف ما الذي أقوله في مثل هذه المواقف، لذا التزمت الصمت وتركته يتكلم ويثرثر، أنظر إليه دون أن أراه، وأستمع إليه ولا أفهم كلامه، كنت معه جسدًا بلا روح، نظرتي الثابتة غير الوجلة أو الحيية التي أنظر إليه بها جعلته يشعر أنه أمام فتاة خبيرة في كل ما هو دنيء، لم أشعر إلا وقد أطبق فمه علىٰ فمي وقبلني قبلة عنيفة، قبلة سيئة جعلتني أشعر بالقرف، دفعته بكل قوتي وبصقت في الأرض من شدة القرف، سببته وسببت جميلة، وسحبت حقيبتي وأسرعت نحو باب الخروج وجميلة خلفي تحاول أن تستوقفني لكنها لم تفلح.

في الأيام التالية كانت تساومني وتهددني من أجل أن أعود وأقبل ما قبلته هي علىٰ نفسها، أرادت أن تجعلني مثلها، كانت تقيم علاقات بشتىٰ أنواعها ولكنها تحتفظ بنظرة الناس الموقِّرة لها، لا أدري كيف كانت تفعل ذلك، تبدو كقديسة ولكن الحقيقة أنها كانت كعاهرة، تلك الحقيقة التي لم يرها سواي، لذلك لم أستطع أن أثبتها في حين أنها أثبتت عليّ ما ليس فيّ، أثبتت أنني صاحبة أكبر عدد لقصص الحب الخالية من البراءة، وذلك لأنني كنت أصدقها رغم تأكدي من كذبها مرات عديدة، فأذهب معها إلىٰ حيث تريد، وأنتظرها حتىٰ تنتهي من لقاءاتها العاطفية التي لم أكن أعرف ما الذي يدور فيها، وفي النهاية تكشفت لي الحقيقة، فعلمت أنني أنا التي كنت أظهر دائمًا في الصورة

أمام الناس، أما هي فكانت تعمل في الخفاء، حرمتني جميلة من كل ما هو جميل تمنيته يومًا ما، حرمتني من الحب الحقيقي الذي ارتجيته من الحياة، حرمتني من حازم بكذبة صدّقها الجميع لأنها كانت محكمة، فلم أستطع الإفلات منها رغم صدقي في نفيها.

حينها علمت أنه يتوجب عليّ أن أستمتع بقليل من الكذب، فالكاذبون كانوا دائمًا الفائزين وأنا كنت الخاسر الوحيد، ورغم ذلك لم أبتعد عنها.

تذكرت نيفين وما آل إليه حالها، قلت في نفسي: «لعل في حياتها جميلة أخرىٰ!».

في الصباح، توجهت إلىٰ عملي وكنت قد عزمت أن أعرف المزيد عن حياة أحمد، كنت أعلم أنه سينتظرني عند المحطة، لذلك كتبت ردًّا مختصرًا بأنني لا مانع لدي في المزيد من الأحاديث التي تكشف الحقائق وتزيل القلق، ثم زيّلت الرسالة برقم «الواتس آب» الخاص بي وطلبت منه أن نتحدث من خلاله، ثم بدأت مرحلة جديدة في حياتي، مرحلة زادت من حيرتي لكنها في نهاية المطاف ألقت عليّ ظلال الأمل، مرحلة كنت فيها كغزالٍ في مرمىٰ صياد ماهر فهل سيجيد التصويب؟

الفصل التاسع

شهران ونصف مرّا وعلاقتي بأحمد تأخذ شكلا أكثر عمقا مما سبق، تبادلنا أحاديث طويلة كل ليلة عبر رسائل الواتساب، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تصلح للتعامل معه، أما هو فقد استسلم إلىٰ حالته ولم يعد راغبا في تغييرها أو الشفاء منها، لم أجد لديه عزما أن يعود إلىٰ سابق عهده في الحياة، ولم تُجْدِ معه توسلاتي أن يحاول أن يخرج من حزنه علىٰ ابنه وأن يراجع الطبيب من جديد، وكنت أتعجب كيف لم يشعر بأي تغيير طرأ عليه وهو الذي يؤكد لي دائما أنني حلمه الذي طالما حلم به.

عرفت الكثير عنه لكنه لم يسمع مني أي شيء عن نفسي وكأنما يعلم عني أكثر مما أعلمه! أراحني موقفه هذا من عناء القص عليه لقصصي التي لا أرغب في استرجاعها، لكنه مع ذلك كان أمره محيرا، بل مقلقا! لماذا لا يسألني عن حياتي كيف كانت وكيف صارت إلىٰ ما هي عليه الآن؟ هل يعجبه أنني أصبحت سيدة قراري وأعيش بمفردي في بلد لا يعرفني فيها أحد؟ ألم يسأل نفسه كيف سمح لي أهلي

بالاستقلال وهم الذين لطالما ضيقوا عليّ لفقدهم الثقة في قدرتي علىٰ مواجهة الحياة بمفردي؟

كانت هذه الأفكار تؤرقني لكنني كنت أنحيها جانبا كي لا تفسد فرحتي بذلك الشعور الذي عاد إليّ من جديد وكنت قد افتقدته لسنوات مضت، غضضت الطرف عن كل ما يؤرقني لكن ظنوني أبت أن تسلمني إلىٰ التصديق الكامل فكانت بين الحين والآخر تطل برأسها لتذكرني أن الحكايات الناقصة لا تدوم سعادتها، وحتىٰ تكتمل السعادة عليَّ بكشف النقاب عن كل جوانبها المبهمة، وكلما هممت بأخذ تلك الخطوة تراجعت ولم أستطع أن أخبره بأصل الحكاية.

التقينا في مكان عام وكانت هذه هي المرة الأولىٰ التي أسمح لنفسي فيها بالخروج معه علىٰ مرأىٰ ومسمع من الناس، كان ملفتا بمظهره الأنيق، يجذب أي فتاة ويجعلها تتمنىٰ أن تسير بجواره متأبطة ذراعه، لكن ما حدث معي كان غريبا، لم أشعر بسعادة الفتاة التي تسير بجوار حبيبها الذي يحبها من أعماق قلبه، حتىٰ عندما حاول أن تتشابك أطراف أصابعنا ونحن نسير معا في ذلك الطريق المظلم لكثافة الأشجار فيه أبعدت يدي بعيدا عنه وظن أنني ما فعلت ذلك إلا لخجلي منه ومن الناس ولكن الحقيقة أن أمرا آخر هو الذي دفعني أن أحرر يدي من يده، شيء داخلي أخبرني أن سعادتي ليست كاملة، فأنا الآن لست تلك الفتاة التي أكونها معه ونحن نتحدث عبر الإنترنت لا

يرىٰ أحدنا الاخر، لقد كنت أكثر سعادة وأكثر أريحية وأنا هناك لا يجمعنا المكان ولكن يجمعنا شعور، لا تلتقي عينانا ولا تتشابك يدانا ولكن يلتقي قلبانا وتتشابك حروفنا عبر فضاء يكون الإنسان فيه كما يريد أن يكون.

أما الآن وأنا معه فأشعر بالخوف والاغتراب، أسير معه بجسدي وأسمعه بجوارحي لكن روحي كانت هناك معلقة في مكان بعيد، مكان لا أعرفه ولكني أشعر به، أطير فيه بلا أجنحة وأحلق في الأفق البعيد لا يحجبني عن السعادة نظرة تخيفني أو همسة تعيدني إلىٰ حزن قديم حاولت جاهدة أن أتناساه لكن دون جدوىٰ، مكان بدت لي فيه ملامح إنسان آخر، وجهٌ يخيل إلي أنني أعرفه لكن لا أذكره، كأنما هو حلم عشته من قبل، كنت أسافر بأفكاري ونحن نخطو معا خطوات ثابتة، خطوات صامتة لا كلام يقطع نقراتها الرتيبة، المترقبة علىٰ الأرض الأسفلتية، كأنما تخبر العالم أن ثمة بركان علىٰ وشك الانفجار، لا شيء بيننا سوىٰ طريق يجمعنا لكننا فيه كالمفترقين!

تمنيت لو قصر هذا الطريق وانكمش فأعود إلىٰ أحضان غرفتي من جديد وأمسك بهاتفي وأكلم أحمد الذي أعرفه.

اليوم التالي كان الإجازة الأسبوعية، استيقظت في التاسعة صباحا رغم أنني لم أنم في ليلتي سوىٰ سويعات قلائل بعد الفجر، فقد أهلكني الفكر وطاف بي في احتمالات بعيدة إلا احتمالا واحدا وهو أني أعيش وهمًا أسميه حبًّا.

استيقظت علىٰ دقات جرس الباب التي لا تنقطع، وكنت اعتدت هذه الطريقة من نيفين التي تحب أن تعلن عن قدومها إلىٰ أي مكان تذهب إليه بصخب وضجيج كصخب عربة القطار عندما تدخل محطتها فتنبه المسافرين أن استعدوا فانتظاري لكم لن يطول.

لم تكن نيفين وحدها القادمة بل كانت معها ريهام بوجهها الضحوك ونظرتها البريئة.

كنت ما زلت معبأة ببقايا نوم يراودني أن أعود ثانية إلىٰ السرير، رحت احتضن كل واحدة منهنّ حضنا سريعا تدخل بعده ملقية بحملها علىٰ أقرب أريكة لها ثم تتنقل كما يحلو لها في الحجرات، فليس بالبيت ما يحول بينهما وبين حريتهما الكاملة في انتهاك أي خصوصية لي فيه.

سحبت أحد الكراسي المحيطة بطاولة الطعام والموضوعة في بهو غرفة الاستقبال وجلست واضعة رأسي بين كفي أحاول أن أستفيق أو أطرد بقايا النوم الملحة عليّ لكنني لم أفلح فغفوت وأنا جالسة علىٰ هذه الوضعية.

لم أدر كم استغرقت في النوم وقتها ولكن يبدو أنه طال قليلا لأنني استيقظت علىٰ رائحة «طعمية» ساخنة وباذنجان مقلي ومحشو بالفلفل الأحمر والثوم وقطع من الجبن القديم وشرائح الخيار والطماطم وطبق متوسط لمعت بداخله حبات الزيتون الأسمر

المخللة وخبز طازج يتصاعد منه بخار ساخن حاملا معه رائحة الخبز البلدي المحببة إلىٰ نفسي.

شعرت بالجوع تتقلص له أمعائي عندما رأيت هذه الأصناف أمامي، ودون أن أشعر مددت يدي ألتقط «قرص طعمية ساخن» فضربتني عليها ريهام ضربة خفيفة مانعة إياها من الوصول إلىٰ مبتغاها، قالت ليس قبل أن أغسلهما وأغسل عني بقايا النوم التي ما زالت تتراقص بين جفنَي.

قمت مسرعة إلىٰ الحمام بعد أن توعدتهما إن مدت إحداهما يدها إلىٰ الأطباق قبل مجيئي سأحرمها من كوب الشاي الذي تحبانه من صنيعي.

- لا تقلقي، سنترك لك الأطباق فارغة لتغسليها.

قالت ريهام وهي تضحك معاندة إياي في توعدي لها، ثم بدأت جولة نقار بينها وبين نيفين لاختلافهما في مكان وضع أكواب المياه، أهي توضع علىٰ يسار الجالس أم يمينه! وكل واحدة منهما تتهم الأخرىٰ بالجهل.

اغتسلت وعدت وقد التزمت كل واحدة بما نبهت به عليهما إلا من لقيمات قليلة لم تستطع نيفين منع نفسها منها كعادتها، فهي تحب دائما أن تكسر أي قيود.

- لن أنسىٰ لكما صنيعكما هذا طيلة حياتي، لولا أن أرسلكما الله إليّ ما كنت تناولت أي طعام اليوم.

قلت وقد بدأت في تمزيق الخبز وحشوه بقطعة «طعمية» وقطعة باذنجان وشريحة طماطم وبدأت في التهامها.

- أي خدمة.

قالتها نيفين وفمها محشو بالطعام فتطايرت منه قطع صغيرة فضربتها ريهام التي ما زالت حائرة بأي الأصناف تبدأ وقالت لها:

- قلت لك ألف مرة لا تتكلمي وفي فمك طعام.

ثم أكملتْ:

- اجلسا، فقد نهىٰ الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- عن الأكل واقفا.

- بركاتك يا شيخة ريهام.

قالت نيفين ساخرة فنهرتها ريهام قائلة:

- شيخة رغما عنك.

ثم أكملت:

- ربنا يهديك.

بينما قلت أنا بهدوء:

- صلىٰ الله عليه وسلم.

وجلست مستجيبة لكلامها وقد ارتسمت علىٰ وجهي ابتسامة رضا عن نقارهما وشجارهما المحبب إلىٰ نفسي، ثم قلت لأغيظ نيفين:

- بارك الله فيك يا ريهام، دائما تذكريننا بهدي الرسول في أمور حياتنا.

توقفت نيفين عن الالتهام وقالت محتجة:

- لا، لا، الله يكرمكم، لا أريدها حلقة ذكر، أنا جئت لتشاركاني سعادتي وفرحتي، أريده فرحًا علىٰ طريقتي!

فاجأني كلامها فقلت بجدية:

- عن أي فرح تتحدثين؟

قالت ريهام موضحة الأمر:

- ستتزوج.

اتسعت ابتسامتي وقمت إليها واحتضنتها رغم المنضدة الفاصلة بيننا لكنها لم تمنعني من احتضانها حضنا سريعا غير مكتمل وإنما يعبر عن نشوتي وسعادتي بهذا الخبر السعيد:

- مبارك.

قلت لها وأنا أقبلها فقالت وقد تشربت وجنتيها بحمرة الخجل:

- أشكرك يا عاليا، كنت أعلم أنك ستفرحين من أجلي.

- ولماذا لا أفرح يا نيفين؟ أنت صديقتي علىٰ أي حال، نختلف ولكن نبقىٰ أصدقاء.

ثم اكملت مداعبة لها:

- ومن يكون ذلك الذي دعت عليه أمه؟

قالت ريهام سريعا وهي تبتسم ابتسامة مرح في ظاهرها بينما تحمل بداخلها ألما وسخرية في آن واحد:

- إيدن.

رفعت حاجبي دهشة وقد تباطأ تناولي للطعام وكانت عادتي ألا أركز في أمرين في آن واحد فإما أن آكل أو أتكلم خاصة لو كان الموضوع علىٰ قدر من الأهمية.

قلت وأنا أفرك لقمة في يدي وانقيها من بقايا العجين الذي لم ينضج جيدا في أثناء خبزها

- زواج حقيقي؟!

قالت نيفين وقد تملكتها الدهشة من سؤالي الساذج والمستفز في نفس اللحظة:

- وهل هناك زواج حقيقي وآخر مزيف؟

صمتت هنية ثم قالت مبتسمة:

- سنتزوج كما يتزوج الناس!

قالتها نيفين بتلقائية كأنها أمر عادي وتطور طبيعي لعلاقتها بإيدن، فارتسمت علىٰ وجهي علامات الاستفهام التي فهمتها ريهام فأجابت علىٰ الفور:

- إيدن أعلن إسلامه واخذ شهادة موثقة من الأزهر أنه مسلم.

توقفت تماما عن الأكل محاولة استيعاب ما أسمعه، ونيفين تأكل كما لو أنها لم تتناول طعاما منذ أسبوع مضىٰ!

وريهام تنظر إليّ وعلىٰ وجهها ارتسمت ابتسامة المغلوب علىٰ أمره ثم أخذت تضرب علىٰ يد نيفين التي تلتقط الطعام من أمامها وهما تضحكان.

شعرت أنني غريبة بينهما فكلتاهما تقبلت الأمر علىٰ ظاهره ولم تغوصا في أعماقه كما أفعل أنا دائما في الأمور التي تحوم حولها الشبهات، لا أستطيع الكف عن تلك العادة القميئة وهي البحث فيما وراء الحدث، ما مررت به في حياتي جعلني أدقق في التفاصيل وأغوص في أعماق المواقف وأستكشف ما تخبئه السطور بين ثناياها من معانٍ قصدت لكنها لم تكتب، ولا أدري أهو سوء ظن تلبسني وصار رفيقا لي لا أتخلىٰ عنه أبدا في حكمي علىٰ الآخرين حتىٰ يثبت لي العكس، أم إنها حكمة تعلمتها من جراء ما مررت به من مواقف عاقبتني علىٰ براءتي ووضوحي وإقبالي علىٰ الحياة عقاب المجرمين.

قلت ساخرة:

- أرىٰ لو أنك اتبعت دينه لكان ذلك أكثر إقناعا بالنسبة لي!

لم تأبه نفين للنبرة الساخرة الواضحة في كلامي ولكنها قالت بلا اكتراث:

- هذا الأمر لا يهم بالنسبة لي، ولكن كان لا بُدَّ منه لإرضاء العائلة.

- وهل وافقوا؟

قلتها بارتياب، فقالت نيفين بهدوء

- ليس لديهم خيار آخر!

- ما دام أعلن إسلامه فليس أمامنا سوىٰ ما بدا لنا والله أعلم بالنيات!

قالت ريهام متدخلة لإنهاء الحديث في هذا الأمر، كانت تريد ألا نتحدث كثيرا في مسالة إسلامه أو إلحادها فقد تحدثنا فيها كثيرا من قبل، وفي الحقيقة فإن نيفين كان أمرها محيرا للغاية، تردد أنها لا تؤمن بالأديان ولا تؤمن أن هناك إله ثم لا تلبث أن تتحدث عن رحمة الخالق بنا وبأنه غني عن عذابنا وقد اختار كل واحد منا أن يعيش الحياة التي وهبنا هو إياها بالطريقة التي تناسبه وتسعده، فكيف يهبنا شيئا ثم يحاسبنا عليه فيما استخدمناه! ثم سرعان ما تعود إلىٰ سخطها وضجرها من تلك القيود التي تفرضها الأديان علىٰ معتنقيها وتردد دائما أننا لا نحب إلا أن نعيش عبيدا ثم تربط تلك العبودية برضوخ الشعوب المقهورة لظلم حاكميها وتتعجب كيف نحلم بالحرية والعدالة بين الناس ونحن في الأصل عبيد لمعتقدات صنعناها لأنفسنا وجعلنا علىٰ رأسها آلهة نستمتع بالتذلل لها وكأن الأصل في الإنسان التذلل والعبودية لا العزة والحرية.

فهمت ما ترمي إليه ريهام فغيرت الموضوع وسألت:

- ومتىٰ الزواج؟

قالت نيفين والسعادة تتراقص في عينيها:

- خلال أسبوع!
- ربنا يوفقك.

قلتها باستسلام فربتت نيفين علىٰ يدي مثمنة دعوتي وأمنيتي لها بالتوفيق فابتسمت لها وربت علىٰ يدها بحنان فقالت ريهام:

- نريد أن نحتفل بهذه المجنونة احتفالا يليق بها!

انتفضت نيفين من علىٰ الكرسي ونزعت عنها ملابسها فبدت تحتها بدلة رقص خليعة، حمراء اللون، ووضعت يديها في خصرها واستدارت استدارة إيقاعية ثم تحركت كعارضات الأزياء وقالت:

- وقد استعديت استعدادا كاملا لهذا الحفل!

جحظت عينانا أنا وريهام وتدلت شفاهنا من هول المفاجأة ثم ما لبثنا أن ضحكنا بصوت عال في وقت واحد وقلنا:

- مجنونة! نقسم أنك مجنونة.

شاركتنا نيفين الضحك ثم سارعت إلىٰ هاتفها الجوال وتخيرت موسيقىٰ رقص شرقي تتناسب مع بدلة رقصها تلك فصدحت الموسيقىٰ وبدأت تتمايل وتتلوىٰ أمامنا كراقصة ضليعة في مهنتها.

تناولنا الفطور ورنين ضحكاتنا يدق الجدران فتتراقص معه سعيدة بتلك الجلبة وذاك الصخب الذي لم تعتده شقتي لوحدتي

المقيتة فيها حتىٰ جاوز صخبنا حدود البيت وصار من بالخارج يسمع ضجيجنا وصراعنا حول قطعة باذنجان متبقية تشتهيها كل واحدة منا فنتصارع عليها والفائز هو من يلتهمها رغم نظرة الحقد في أعين الباقين، وكانت نيفين هي الفائزة دائما ببركة الطعام وكنت أنظر إليها وعلىٰ وجهي ابتسامة تعجب كيف تفوز دائما بالنهايات رغم حرص الجميع عليها.

مر الوقت سريعا والمرح يغمرنا، مرح لم أعشه من قبل حتىٰ رن هاتف نيفين وكان علىٰ الجانب الآخر «إيدن»، عرفنا ذلك من ابتسامة نيفين الحيية التي ارتسمت علىٰ وجهها رغم كل ما تبديه من جرأة تصيبنا بالغثيان، إلا أن ابتسامتها تلك جعلتني أومن أن كل امرأة مهما تحررت من كل فضيلة فما زال داخلها بذرة من الحياء وعليها إما أن ترويها فتنمو وتصير شجرة وارفة الظلال تستظل بها من هجير التدني والتخلي عن القيم، أو أن تهيل عليها التراب فتبقىٰ حبيسة بين جنبات روحها تنتظر من يرويها بماء الثقة والحب والأمان فتنمو وتزين حياتها.

أنهت نيفين حديثها مع «إيدن» وأخذت تقفز في الهواء معلنة عن سعادتها بما أخبرها به عريسها المرتقب من أنه قد حجز طاولة لأكثر من أربعة أفراد في فندق متوسط في وسط البلد احتفالا بهذه المناسبة السعيدة وأن علينا أن نستعد لها ونتزين بالطريقة التي تليق برواد هذا الفندق.

قالت ريهام معترضة بشدة علىٰ عرض نيفين هذا الذي لم يكن في الحسبان والذي لم نستعد له:

- لا لا لا، اعفوني من هذا الحفل، فأنا لا أخرج مع رجال أغراب وأسهر معهم في الأماكن العامة.

نظرت إليها نيفين بصلف معترضة علىٰ كلامها وقالت باستعلاء:

- عن أي رجال أغراب تتحدثين؟ هؤلاء الرجال نحن نجلس معهم في غرف مغلقة في المدرسة!

- أنا لا أجلس مع رجال أغراب في غرف مغلقة يا نيفين.

قالت ريهام بغضب ثم أكملت:

- كما أن المدرسة شيء والأماكن العامة شيء آخر، المدرسة مكان عمل، والحكومة هي التي خصصت لنا هذه الغرف والتي بالمناسبة اسمها مكاتب -قالت هذه العبارة وهي تضغط علىٰ حروفها حرفا حرفا معلنة عن استيائها- هذه المكاتب نباشر فيها أعمالنا لا نتسامر فيها، كما أن علاقتي بهؤلاء الرجال لم تتعد حدود العمل مطلقا وأنت تعرفين ذلك جيدا، أما الخروج إلىٰ الأماكن العامة فهذا أمر خاضع لإرادتي الكاملة فإما أن أقبله أو أرفضه، ولن يستطيع أحد أن يجبرني علىٰ فعل شيء لا أرضىٰ فعله مهما كان وضعه بالنسبة لي.

اتسم الحديث ببعض الحدة التي خشيت أن تنتهي بخلاف قد يودي إلىٰ قطع العلاقة بين نيفين وريهام والتي اتسمت بالتوتر، فهما

على النقيض من بعضهما البعض فإحداهما في أقصى اليمين والأخرى في أقصى اليسار وأنا بينهما أحاول تقريب المسافات بينهما، لكن بين الحين والآخر يطل الخلاف برأسه فيصيب تلك العلاقة بالتوتر مدة من الزمن ثم تعود مرة أخرى، لكن اليوم كان لا بُدَّ أن يزول أي خلاف، فقد لا نلتقي ثانية وعلينا أن نفترق وكل واحدة منا تحمل بداخلها ذكرى حسنة لرفيقتها، فتدخلت لأهدئ من حدة ريهام التي بدت واضحة جلية، كذلك نيفين كانت ذكية بالقدر الذي يجعلها لا تفسد فرحتها في اللحظات الأخيرة فأقبلت على ريهام بابتسامة حنونة واحتضنتها قائلة:

- لن أجبرك على فعل شيء لا تريدين فعله يا ريهام، ولكني كنت أود أن تشاركيني فرحتي حتى آخر لحظة.

لانت ريهام وتبدل الغضب إلى حنان بدا على قسمات وجهها وقالت:

- شاركتك هنا يا نيفين بالقدر الذي أستطيعه ولا يخالف مبادئي واعتقادي.

ثم قالت مبتسمة وهي تغرس سبابتها برفق في خد نيفين:

- رغم بعض التجاوزات! ولكن لا يهم، طالما الأمر لم يتعد ثلاثتنا فقد أباح الرسول -صلى الله عليه وسلم- للنساء بدق الدفوف للإعلان عن أفراحهن ولم يضيق الشرع علينا في هذه المسألة، المهم ألا يكون هناك اختلاط فتقع الفتنة!

نظـرت إليهـا نيفـين شـزرا مبديـة عـدم اقتناعهـا بمـا تقولـه ريهـام وقالت ساخرة:

- فتنة!

ثم أطلقت ضحكة ماجنة وقالت:

- بركاتك يا ست الشيخة.

نهرت نيفين وعاتبتها علىٰ مجونها وسخريتها وقلت:

- اسكتي أنت، فهي شيخة رغم أنفك!

ثم التفت إلىٰ ريهام قلت بحنان:

- دعـك منهـا ولا تـأبهي لمجونهـا، فالشـيطان نفسـه يخـاف أن تضله نيفين.

ضحكت ريهام وكذلك نيفين فانتهىٰ الخلاف بينهما، لكن نيفين ما زالت متحفزة ومتوجسة خيفة من أن نتخلىٰ عنها فسألتني مستنفرة:

- وأنت يا ست عاليا، ستأتين معي أم أن إيمانك يمنعك؟!

قلت وأنا أدفعها نحو الحمام لتغتسل استعدادا لحفلها المرتقب:

- لا تقلقي، فأنـا لـم أصـل إلـىٰ درجـة إيمـان ريهـام كـي أرفـض مجونك، ولكني كذلك لم أهو إلىٰ مرتبة فسـادك لأقبلـه! لكنني سآتي معك أيتها المجنونة حتىٰ لا تكوني وحيدة في يوم كهذا.

التفتت إليّ والسعادة تغمرها واحتضنتني وهي تقفز علىٰ الأرض من فرطها وتقول:

- حبيبتي، حبيبتي.

مالت الشمس ناحية الغروب وأصبح شعاعها رقيقا حانيا عندما نزلنا معا تتمايل بيننا نيفين بفستانها الزهري ذو الأطراف الواسعة الهفهافة كفراشة يداعبها النسيم فتتمايل بين الأغصان، وكان واضحا أن نيفين كانت تعلم بأمر الاحتفال هذا من قبل اتصال «إيدن» بدليل هذا الفستان الذي أحضرته معها بشكل احتياطي علىٰ غير عادتها ولم تخرجه إلا بعد أن هاتفها.

رافقنا ريهام حتىٰ استقلت سيارة أجرة عائدة إلىٰ بيتها، ثم استأجرت مع نيفين سيارة خاصة أقلتنا إلىٰ الفندق الذي ينتظرنا فيه «إيدن» بصحبة مصطفىٰ.

كان الزحام شديدا فاستغرقنا ساعة ونصف لم تكف خلالها نيفين عن الصخب والضحك وكانت تغني وتتمايل مع أنغام موسيقىٰ الأغنية التي أهدانا إياها سائق التاكسي لتخفف عنا حدة الانتظار وتوتر الزحام وهو لا يدري أن ضجيج موسيقاها الصاخبة قد سلبني ما تبقىٰ لدي من صبر علىٰ تلك الرحلة التي لم تكن علىٰ هواي وإنما أجبرت عليها، فكدت أصرخ فيه وفي نيفين الهائمة في عالمها المجنون الصاخب، ولكني تراجعت بعدما تذكرت أملها الذي وضعته فيّ أن أكون شريكة لها في سعادتها المزعومة.

قلت في نفسي: «ما باليد حيلة»، واستسلمت لأفكاري الخاصة حتىٰ لا أفسد علىٰ نيفين فرحتها.

فتحت هاتفي لأول مدة منذ لقاء أمس فوجدت سيلا من الرسائل القلقة حينا والغاضبة حينا آخر من أحمد الذي خرج عن شعوره لأنني لم أرد علىٰ رسائله منذ الصباح لدرجة أنه وصفني بالقاسية.

ورغم حدته غير المبررة إلا إنني رأيت أنه يجب عليّ طمأنته والاعتذار له عن إهمالي له متعللة بضيوفي الذين جاءوا علىٰ غير موعد، ثم أخبرته أنني خرجت برفقة نيفين وحكيت له ما حدث فثارت ثائرته إذ كيف أخرج دون أن أخبره وأستأذنه في ذلك، فمن حقه عليّ ألا أقدم علىٰ فعل أي شيء إلا بعد مشورته، وأخبرني أنه لا يقبل مني مثل هذه الأفعال الصبيانية التي لا تصدر إلا من المراهقات وطلب مني العودة علىٰ الفور وإلا سيكون رده قاسيا وأنا لن أحتمل عواقبه.

الفصل العاشر

وقف «إيدن» و«مصطفىٰ» علىٰ باب الفندق ينتظراننا وكان «إيدن» متألقا في حلة سوداء أنيقة وقميص أسود مفتوح حتىٰ منتصف الصدر فبدا صدره أبيض وأملس رغم كثافة شعر لحيته وشعر رأسه الأصفر اللامع المنسدل علىٰ جانبي رأسه.

كان «إيدن» بالنسبة لأبناء وطنه رجلا فاتنا يجذب أي فتاة، أما «مصطفىٰ» فكان علىٰ النقيض منه تماما ورغم ذلك فقد امتلك كل مقومات الجاذبية الشرقية، بشرته السمراء وشعره المجعد القصير ولحيته الخفيفة، قوامه الممشوق وعضلاته المفتولة، كل ذلك جعل منه فارس أحلام النساء الصغيرات منهن والكبيرات.

كان يرتدي سروالا رماديا وقميصا قرمزيا، وقف عاقدا ذراعيه أمام صدره بينما خبأ إيدن يديه في جيبي سرواله.

نزلنا من السيارة فلوحت نيفين بسعادة لإيدن الذي بادلها التلويح ولكن برزانة، بينما ظل مصطفىٰ علىٰ وضعيته ينفرج فمه عن ابتسامة تحمل من المكر أكثر مما تحمله من العفوية.

جلسنا حول الطاولة أزواجا، أنا ومصطفىٰ في جهة ونيفين وإيدن في الجهة الأخرىٰ، لم يكن إيدن يجيد العربية لكنه كان يفهمها، أما مصطفىٰ فكان يتكلم الإنجليزية بصورة جيدة وأنا بينهم أحاول فهم مضمون الحديث من خلال ردود مصطفىٰ ونيفين، لم أحب يوما اللغات الأجنبية لذلك لم أتعلمها إلا بالقدر الذي جعلني أنجح فيها في الدراسة، ولكن هذا الموقف جعلني أشعر بالحرج فعاهدت نفسي أن أبذل جهدا في تعلم اللغة الإنجليزية، ووثّقت هذا العهد بيني وبين نفسي وأنا موقنة أني سأدرجه في أرشيف الذاكرة كعادتي عندما تتألق في رأسي فكرة جديدة فأخطط لها وأنفذها في رأسي ثم أودعها غياهب النسيان.

الحزن والفرح كالأوبئة؛ ينتقلان بالعدوىٰ، ونيفين كانت سعادتها كبيرة، لو وزعت علىٰ كل البائسين أمثالي لكفتهم، خرجت ضحكاتي من أعماق قلبي فغسلت عن وجهي ذلك الجمود الذي خبأ جمالا بدأ يزوي بمرور الزمن.

انتبهت إلىٰ نظرة مصطفىٰ التي أخرجتني من الواقع وسبحت بي في عالم من الخيال، كان ينظر إليّ كما لو كان يراني لأول مرة، عيناه تساءلت بلهفة «من أنت؟ وأين كنت منذ زمن؟!» قرأت سؤاليه في عينيه كما لو كنت أقرأ الماضي في كتاب تاريخ.

أصابتني نظرته بارتجافة اهتزت لها خلايا رأسي حتىٰ أخمص قدماي، ارتجافة محببة خفق لها قلبي واختلجت لها أجفاني، وبغير

إرادة مني ارتسمت علىٰ شفتي ابتسامة خجل توردت لها وجنتي فابتسم لاضطرابي ومال عليّ قائلا:

- جميلة.

اتسعت ابتسامتي كذلك زاد اضطرابي لكنني حاولت أن أسيطر علىٰ مشاعري التي لا أعرف كنهها وقلت مداعبة:

- أتغازلني؟! سأشكوك غدا للمديرة.

وضحكت لكنه ظل علىٰ حالته، تخترق نظراته أعماقي وابتسامته الرقيقة تقول «كيف لم أرك من قبل؟».

ضجيج بداخلي أشعل الذكرىٰ في صدري، كنت في عنفوان تألقي عندما تسلل حب «حازم» إلىٰ قلبي، عينا «مصطفىٰ» تحملان نفس نظرته الحالمة، ما زال ذلك اليوم محفورة ذكراه في صدري، ذلك اليوم الذي نطق فيها حازم كلمة «أحبك».

علىٰ طاولة في «كافيتريا» صغيرة في محيط الجامعة جلس حازم يومها أمامي ساعتين، كنت متشوقة جدا لسماع كلمة منه تهدئ لهيب الحب في صدري، قالها بعد صبر طويل مني، قالها فزلزلت كياني وطافت بروحي في عالم أميرات «والت ديزني»، الفتاة الفقيرة التي يحبها الأمير، أو الأميرة التي تنتظر فارسها المغوار يحملها علىٰ حصانه الأبيض بعد أن حارب من أجلها الأخطار، جلست أمامه مسندة ذقني فوق يدي المتعانقتين، وعيناي تسبحان في عتمة عينيه، يتراقص قلبي علىٰ نغمات كلماته، وينتفض طربا لرنين ضحكاته.

حكىٰ لي كيف أن النوم خاصم جفنيه منذ ذلك اليوم الذي وقعت فيه عيناه عليّ، صراع أضرمت نيرانه بين جوانحي، يمزقني شعوران يرفض أحدهما الآخر، قلب متيم وعقل قلق، تتزاحم الأسئلة في رأسي وما من جواب، لماذا أحبني؟ وكيف أحبني؟ ودقات قلبي كطبول حرب توترت لرنينها أعصابي، وغصة في الحلق حالت دون خروج الكلمات، وحرارة كلهيب النار تلفح روحي ورغم ذلك ترتعد فرائصي ارتعادة حياء.

- أحبك يا حازم.

قلتها دون وعي فلم أنتبه إلا ويداه تحتضنان يدي وبريق الأمل يشع من عينيه.

- وأنا أهيم بك.

قالها وهو يضغط بيديه علىٰ يدي، فانتبهت وتأوهت، ليس من ألم ولكن من الخجل، حرر يدي وبدأ يتلفت حوله، كسىٰ وجهه خجل طفيف فعاد بظهره إلىٰ الوراء وقال معتذرا:

- آسف، نسيت أننا في مكان عام.

ابتسمت خجلا ولم أجب؛ فمال ثانية إلىٰ الأمام واضعا يديه متشابكتين علىٰ الطاولة ثم قال بغطرسة مصطنعة أراد بها إغاظتي:

- كل هذا الحب تعاني كتمانه ولم تبوحي!

ثم عاد إلىٰ الوراء وأكمل بالغطرسة ذاتها ولكنه زادها قليلا:

- سأنظر في أمرك.

ابتسمتُ حياء، لكن انقباضا خفيفا مس قلبي سرعان ما طردته وأكملنا الحديث بذات الطريقة، بادلته الغطرسة والضحك، ضحكت لأنني كنت أحتاج إلىٰ الضحك، وكنت من قبل يأبىٰ الابتسام أن يرتسم علىٰ شفتي حتىٰ نفر الناس مني وكرهوا صحبتي، هددتني جميلة أنها ستقطع علاقتها بي لو دام هذا الحزن الذي التقيها به منذ أن عرفتني، خفت أن أخسرها وقد خسرت كل شيء، فتعلمت كيف أتخلىٰ عن إحساسي وأزيف مشاعري، كنت أتصنع الرضا، أتصنع الأمل والحب، أتصنع السعادة و أرسم لكل مناسبة شعورا يوافقها، لم تكن حياتي سوىٰ كذبة كبرت واستفحلت حتىٰ ضاقت بها أنفاسي وكادت أن تخنقني. قيل إن أكثر الناس حزنا وألما هم أكثر الناس صخبا وضحكا، وقد كنت كذلك في فترة الجامعة، تبدلت أحوالي وتغيرت، فخرجت عن صمتي وكآبتي وارتديت ملابس مهرج في سيرك يتنقل في الأحياء الشعبية، وعندما أعود إلىٰ البيت أخلع ثياب الأمل وأرتدي ثوب اليأس والإحباط من جديد، وعندما عرفت حازم رسمت في مخيلتي حياة جديدة غير التي أحياها، حياة تمنيتها وفصلّتها علىٰ مقاسي، لا يشاركني فيها إلا الذين اختارهم قلبي، وقلبي قد اختار حازم ورضي به رفيقا.

حكىٰ لي عن حياته، عن أهله في الصعيد وعن عاداتهم، ظل يحكىٰ كثيرا حتىٰ وددت لو صمت، ومن جديد اخترت أن أكون

مخزنـا تمـلأه حكايـات الآخـرين، فاسـتمعت إليـه، اسـتمعت لأنـي اخترت أن أكون أذنًا تهدأ بداخلها الحكايات، ساعتان لم يكف فيهما عـن وصـف حياتـه وأسـلوبه وأفكـاره، مـآثره ومواقفـه الشـجاعة في المواقف الصعبة، ما يحب وما يكـره، ساعتان عرفت فيهما عنه كل شيء، كل شـيء رغـم أنـه لـم يحك إلا القليـل، في النهاية سـألني عن حياتي فصمتُّ قليلا ثم رفعتُ كتفي بلا مبالاة وقلت بابتسامة آسفة:

- حياة عادية، لا شيء فيها يستحق الذكر.

لوحت نيفين بيديها أمام وجهي وهي تقول:

- هوهووووووه، نحن هنا.

اعتـذرت عـن شـرودي وانـدمجت معهـم مـن جديـد، بعـد سـاعة اندمج كـل اثنـين منـا معـا، تحـدثت مـع مصطفىٰ في أمـور كثيـرة حـول العمل والعام الدراسي الـذي أوشـك علىٰ الانتهـاء، ثـم انتحينـا جانبـا وتحدثنا عن حبيبته، قال عنها كلاما كثيرا فهمت من خلاله أن قصتهما قد اقتربت من النهاية، ولمحت في عينيه حزنـا لـم أستطع فهمـه، أهـو حزن الفراق أم ندم اللقاء، ثم باغتني بسؤال:

- وأنت، ماذا عنك؟

قلت بلا مبالاة:

- لا جديد.

نظر إليّ بعدم تصديق وقال:

- رأيتك أمس.

قلت بارتباك وقد أسقط في يدي:

- أين؟
- عند البرج، في طريق الأشجار.

سكتُّ فأكمل هو:

- حب؟

لم أشعر بحرج أو خوف، بل وددت لو بحت بكل ما في جوفي لعلي أستريح، كنا قد انتحينا زاوية بعيدة عن نيفين وإيدن وقفنا في شرفة تطل مباشرة على النيل، نظرت إلى الماء الذي انعكست على صفحته السماء السوداء التي ترصعت بالياقوت المضيء وانعكاسات المصابيح الملونة والتي تحيط بنا في كل مكان، فأخذت تتراقص مع موجاته الهادئة التي لا تمل من الجريان، سحبت نفسا عميقا وقلت:

- تقريبا.
- جميل، متى تعارفتما؟
- منذ مدة قصيرة، شهران أو ثلاثة على الأكثر.
- كيف تعارفتما؟

ضحكت وأنا أقول:

- حكاية غريبة، هو جار لي؛ يسكن معي في نفس البناية.

ثم أكملت له الحكاية وقصصت له كل التفاصيل، تكلمت عن ظروفه وارتيابي منه في البداية ثم استجابتي، حكيت عن حالته المرضية وكيف هو مستسلم لها رغم ظهوري في حياته، شعرت أنني أحتاج إلىٰ إخراج ما بداخلي من حكايات لأفرغ مكانًا لشيء أكبر، شيء لا أعرف ما هو ولكني أنتظره.

قال وقد ارتسم علىٰ ملامحه الانزعاج ممزوجا بالجدية:

- سعيدة؟

قلت بتردد:

- لا أدري!

- ستحتاجين تعلم لغة الإشارة.

ابتسمت وقلت بثقة:

- لا أعتقد أن الأمر سيطول كثيرا، سأعمل كل جهدي لإخراجه من هذا الحزن.

سأل فجأة فأفاقني من وهم عدت بعده إلىٰ حقيقة الواقع:

- وزوجته؟

سكت مدة لا أدري ماذا أقول وظل هو صامتا ينظر ناحية الضوء القادم من بعيد والذي تراقص انعكاسه علىٰ صفحة النيل فتبين أنه قارب للنزهة يتهادىٰ بين الأمواج وأنا ناظرة إليه متوسلة له ألا يحكم

علىٰ حلمي بالموت قبل أن يتنفس الحياة، وبعد مدة صمت حائر قلت متصنعة عدم الاهتمام:

- لم أفكر في أمرها!
- فكرتِ في نفسك فقط، في سعادتك، تماما مثلما فعلت أنا مع نشوىٰ!

ابتسمت وسألته:

- اسمها نشوىٰ؟
- آها، اسمها نشوىٰ.

قال مبتسما كأنما يلمس ذكرها في نفسه شيئا يغير كل شيء حوله إلىٰ سعادة وابتسام ثم سألني:

- أعجبك الاسم؟
- كثيرا جدا.
- لو رأيتها ستعجبك أكثر.
- جميلة؟

سألته بوجل فتنهد طويلا ونظر بعيدا وقال بهيام ممزوج بألم:

- هي أجمل امرأة رأيتها في حياتي!

أصابتني كلماته بإحباط عجيب وضايقني أنني لا أعرف سببه، وسكتْ وسكتُ أيضا لسكوته، وبعد مدة أقبلت نيفين مع إيدن يخبراننا أنه قد حان وقت الرحيل، فخرجنا جميعا وسلم مصطفىٰ علينا وانصرف بعد أن شكر إيدن ونيفين علىٰ

هـذه السـهرة الجميلـة، وأوصـلتني نيفـين ومعهـا إيـدن إلـىٰ البيـت، وعنـد صـعودي لمحـت أحمـد واقفـا في الشـرفة ينتظـر قـدومي وعندما رآني دخل وأغلق النافذة.

الفصل الحادي عشر

مر أسبوعان وأحمد منقطع عني، يقرأ رسائلي ولا يجيب، لم يعد ينتظرني كما كان يفعل كل صباح، مرات قليلة كنت ألمحه من بعيد ولكن لا أستطيع الوصول إليه، كان الأمر غريبا فلم أفعل ما يدفعه لأخذ هذا الموقف الغاضب مني، ما يجمع بيننا هو شعور ما زال في طور التمكين، شعور يتسلل بخفة إلىٰ قلوبنا ولكنه لم يحكم قبضته بعد علىٰ قلبي حتىٰ أتحمل هذا السخف منه، أطاحت بي الأفكار في كل اتجاه، كلها كانت تؤكد فكرة واحدة أن حبه لي وهم بدأ ينجلي له ويستفيق منه، العجيب في الأمر أن جل تفكيري كان منصبا علىٰ مشاعره هو، أقول في نفسي: «نسيني، أهملني، لم يعد يحبني، لم يكن يحبني»، لم أحدث نفسي مرة بما يعتمل في صدري، بما أشعر به أنا نحوه، هل أحبه؟ هل يشغلني غضبه؟ هل يرضيني قربه؟ هل أتألم لبعده؟ هل أخشىٰ فقده الذي بات وشيكا؟ أين أنا من هذه الأفكار؟ أين أنا من هذه المشاعر؟

قلبي فارغ وعقلي لا يكف عن الثرثرة، تتدافع الأسئلة إلىٰ رأسي ولا أجد لها إلا جوابا واحدا، قصة ككل التي سبقتها، لم

تكـد تبـدأ حتـىٰ تنتهـي، يحيـرني ذلـك الغمـوض الـذي مـا كـاد ينكشـف حتىٰ أطبـق علـىٰ الأمـور مـن جديـد، لمـاذا اقـترب ولمـاذا ابتعد؟

قررت ألا أنشغل طويلا بهذا الأمر وبدأت أبحث عن ملهاة أسلي بها نفسي،

غرقـت حتـىٰ رأسـي في العمـل، أتـابع مشـاكل التلاميـذ ومعهـم مشاكل أصـدقائي، شـغل مصـطفىٰ حيـزا كبيـرا مـن اهتمـامي، أفكـر في حكايته ليل نهار، تشغلني تلك العلاقة التي جمعت بينـه وبـين زميلتـه، أين التقيا وكم مرة، كيف سلمت له بهذه البساطة، كيـف سـمحت ليـد تتسلل إلىٰ أجزاء جسدها تبثه لذة سرعان ما تنقضي، كيف هان عليها، عدت إلىٰ تلك الليلة البائسة التي بت فيهـا عنـد جميلـة، اعتـدت علـىٰ المبيت عنـدها واعتـادت المبيـت عنـدي، لـم تكـن لهـا حجـرة خاصـة كانت تشاركنا أختاهـا الأصـغر منـا ذات الحجـرة، فتنامـان علـىٰ سـرير وأنا وجميلة نقتسم سريرها الذي لا يتسع إلا لفرد واحد، كـان الوقـت صيفا والجو حارا، وفي الغرفة «مروحـة مكتـب صـغيرة» ثبتتهـا جميلـة جهة أختيها لأنها تصاب سريعا بالرشح والزكـام، يتصـبب العـرق منـي وصـدري بـدأ يضـيق، قمـت ووقفـت أمـام المروحـة أجفـف عرقـي وأستنشـق بعـض الهـواء، الجميـع نـائمون وأنـا وحـدي أنعـم بهـدوء مستكين، أحب الصمت وأستمتع بـه وأتضـايق لـو قاسـمني فيـه أحـد، فالوحدة هي عـالمي الـذي أكـون فيـه ملكـة، مملكتـي التـي لا سـلطان

لأحد عليّ فيها، أحلم بما أريد وكيف أريد، أقرّب من أحب وأبعد من أكره، ألبس أفخم الثياب وآكل ما لذ وطاب، أضحك، أرقص، أغني أو أبكي، وما أكثر بكائي في وحدتي، تغسلني الدموع من الهموم كما يغسل ذكر الله القلوب من الخطايا، احتجت إلىٰ الحمام فخرجت بهدوء، قضيت حاجتي وخرجت لا تكاد قدماي تلمسان الأرض، انتصب شعر رأسي فجأة وكاد قلبي ينخلع من بين ضلوعي عندما أتاني صوت غليظ من الخلف:

- ما زلت مستيقظة يا عاليا!

التفت إلىٰ مصدر الصوت وقد توقفت أنفاسي فإذا به والد جميلة جالس علىٰ كرسي في ركن مظلم بجوار الشرفة، قلت وقد بدأت أهدأ وألتقط أنفاسي:

- نعم يا عمي.
- الحر شديد هذه الليلة، لعله ما أقلقك مثلي.
- فعلا الجو حار جدا، وجميلة لا تحب المروحة.

ابتسم بحنان وقال:

- جميلة صحتها ضعيفة وتصاب بالزكام من أقل تيار هواء.

ابتسمت باستحياء وتململت في وقفتي، أريد الانصراف ولكني أستحي فقال:

- تعالي اجلسي معي قليلا في الهواء يا عاليا، الجو هنا بارد نوعا ما.

شعرت بالحرج الشديد والتردد في قبول عرضه ولكني كنت أعلم أنني سأقبل في النهاية، لم أعتد الرفض، بل لم أمتلك يوما رفاهية الرفض، سرت بخطىٰ وجلة نحوه، قرّب لي كرسيا كان بجانبه فجلست تتشابك أصابعي في معركة غير معروفة الأسباب، طمأنني بسؤاله عن حالي وكيف هي الحياة معي، سألني عن أبي وأسباب هجره لي، وعن أمي ولماذا لا أسامحها، شعرت بحنان غريب في صوته، كدت أحسد جميلة عليه وعلىٰ أمها، أعطاها الله الكثير وحرمني من الكثير، ترقرقت في عيني دمعات لم يلحظهما لخفوت الضوء، نهض واقفا فجأة وهو يقول:

- سأصنع كوب شاي حتىٰ تكتمل السهرة.

نهضت واقفة وأنا أقول:

- سأعدها أنا يا عمي.

توجهت مسرعة نحو المطبخ، بحثت بعيني عن «الغلاية» والأكواب، أعددت كل شيء، وضعت السكر والشاي في الأكواب ووقفت أنتظر الماء يغلي، شردت كعادتي، انتبهت إلىٰ يد تتحسس أسفل ظهري من الخلف، انتفضت فإذا به عمي، قفزت إلىٰ أعلىٰ لأسقط في حضنه رغما عني فأحكم قبضته عليّ، كان غريبا، شعرت أنه ثمل، احتضنني بقوة، بل اعتصرني وأخذ يقبلني في كل مكان تصل إليه شفتاه، اختنق صوتي ولم أستطع الصراخ من شدة الخوف، حاولت أن أتملص منه و لم أفلح، ألصقني بالحائط وظل يدفعني دفعا

ولعابه يبلل وجهي، لحظات وهدأ كل شيء، دفعته وهربت إلىٰ الغرفة وأنا أبكي، استيقظت جميلة ورأت حالتي لكنها لم تتكلم، لم تفعل شيئا، لم تسألني، لم تلمني، لم تطمئنني، ظلّت تنظر إليّ بصمت قاتل، كانت نظرتها تقول لي أنت حقيرة، قتلتني بنظراتها ثم أكملت نومها.

في الصباح الباكر خرجت دون أن أخبر أحدًا، عدت إلىٰ البيت أحمل في قلبي حزنا وفي رأسي ألف سؤال، لماذا أنا؟

في اليوم التالي اتهمتني جميلة بكل ما هو قبيح، وأخبرتني أن أباها حرّم دخولي بيتهم لأنه علم أنني فتاة لعوب، وأنها ستحتفظ بعلاقتها بي دون علمه، صرخت في وجهها، لعنتها هي وأباها، أخبرتها بما حدث لكنها لم تصدق إلا رواية أبيها رغم علمها بكذبه، ورغم علمي بحقارتها إلا أنني قبلت أن تبقىٰ صديقتي دون علم أهلها، لم يكن لي غيرها.

ما زلت غارقة في أوحال الماضي، أعاقب علىٰ أخطاء لم أرتكبها ويحاسبني عنها المجرمون أنفسهم، انتفضت غاضبة.

- لماذا يعاقبني أحمد؟

قلت في نفسي بغضب، تمنيت أن ألتقيه وأخبره صراحة أنني لا أريده، فهو ليس الحلم الذي يراودني، وهو ليس الأمل الذي يلوح لي، بل هو غصة في حلق سعادتي، تكدر صفوي وتجلب البؤس إلىٰ أيامي.

تمنيت لو أجد من يشاركني حيرتي، لم أخبر أحدًا بأمر أحمد، بل لم أشارك أحدا أي سر من أسراري، تعلمت أن أحتفظ بها وحدي،

فسرّك إن لم تقو علىٰ حمله والعبور به إلىٰ منطقة الأمان فمن ذا الذي يفعل؟!

اليوم كنت حزينة جدا، والسبب في حزني هو سرّي الذي لا أقوىٰ علىٰ حمله وحيدة، بحثت حولي عمن أشركه تلك الهموم التي توالت عليّ تترا فلم أجد سواه يستطيع مواساتي، لا أدري لماذا لكنه هو الوحيد الذي أستطيع أن أكشف أمامه مشاعري بلا خجل.

بحثت عنه فلم أجده، كان مشغولا ربما بأمر خاص أو بأمر عام، المهم أنه لم يكن مشغولا بأمري، فقد اقتربنا من نهاية العام والجميع يستعدون لعمل المعرض السنوي والذي يحضره في كل عام لفيف من المسؤولين علىٰ أعلىٰ المستويات، انشغلت أيضا كبقية المنشغلين، شاركت جماعة التربية الاجتماعية في تجهيزاتهم ومشاريعهم التي سيتم عرضها، وشاركت جماعة المسرح في إعداد وإخراج عمل مسرحي يناقش المشكلات التي يتعرض لها المراهقون في المدارس، أما مصطفىٰ فكان مشغولا أكثر مني، ورغم أننا نعمل معا في مكان واحد إلا أن لقاءاتنا كانت سريعة ومفاجئة.

جلست في حجرة المكتب الخاصة بنا أقلّب أوراقي، فلم أنتبه إلىٰ سلمىٰ التي دخلت الحجرة وأنا منهمكة في عمل بسيط لكن خيالي كان محلقا في عالم آخر، فاجأتني بسؤال مللت من تكراره فيما مضىٰ ومع الوقت اعتدت علىٰ ألا أهتم به:

- لماذا لم تتزوجي حتىٰ الآن؟

رفعت بصري إليها وظللت صامتة، أود استيعاب سؤالها الذي لم أتوقعه منها أو من غيرها، فلقد تخطيت هذه المرحلة منذ مدة، أبلغ الآن عامي الخامس والثلاثين وقد ملّ الجميع هذا السؤال، فما عادوا يرددونه وإنما أغدقوني بنظرات الشفقة والعطف لأنني لم أنل شرف الانتساب إلىٰ رجل حتىٰ لو لم يكن يحمل من الرجولة إلا اسمها.

كنت أستاء من تلك النظرات، ومع الوقت لم أعد ألق لها بالا، ثم لم يعد أحد يلق لي أنا بالا، وما عاد يعنيهم إن تزوجت أو لم أفعل، وما دفعهم إلىٰ الصمت إلا رؤيتهم بساط الأمل ينسحب من تحت أقدامي ولا حاجة إليهم في إحياءه بداخلي من جديد، لكن زميلتي أعادتني بقوة إلىٰ تلك المرحلة السخيفة، الجميل أنني أصبحت اليوم أكثر ذكاء وأقل تأثرا، فأصبحت أعرف كيف أهرب من الأسئلة التي لا أريد الإجابة عنها، أو أحول الموضوع الشائك إلىٰ طرفة أسخر منها فيظن السائل أنها لا تعني لي شيئا.

أجبت علىٰ سؤالها بسؤال مضاد:

- هل عندك عريس لي؟

ضحكت وقالت:

- كثيييييير، أشيري فقط وسيأتون إليك مهرولين.

لامست كلماتها شغاف قلبي فأسعدتني، وكانت هذه هي المرة الأولىٰ التي أتلقىٰ فيها جوابا مثل هذا، شعرت أن الحياة لم تدر عني وجهها الجميل وأنه ما زال هناك أمل، ورغم أنني بدأت قصة حب من

نوع خاص، إلا إنني لم أشعر فيها بهذه السعادة التي غمرتني عندما قالت لي زميلتي هذه الكلمات، ولأول مرة بدأت أتأمل زميلتي هذه، كانت سمراء، لها أنف دقيق وعينان متسعتان قليلا، وفم ليس بالصغير ولا بالكبير، أهدابها طويلة إلىٰ حد ملفت، قليلة عظام الجسد فتبدو دقيقة الحجم وأصغر من عمرها الحقيقي، صوتها حاد وحرفي السين والصاد عندها لهما صفير عال يضايقني أحيانا.

ابتسمت لها وقلت مداعبة:

- هاتي واحدا من هؤلاء الكثيييييير وأنا أتزوجه فورا.

فقالت علىٰ الفور وبلا تردد وكأنما كانت تنتظر مني هذا الرد:

- أخي.

تراجعت ابتسامتي ببطء وحل محلها الوجوم الذي بدا علىٰ وجهي، فلم أتوقع أنها تفكر في الأمر بجدية، كنت أظنها تثرثر كما يثرثر الكثيرون، تلعثمت وأبت الكلمات أن تخرج من فمي، كذلك هي، لم تعطني الفرصة كي أستجمع كلماتي لأرد بها عليها وأكملت كلامها:

- هو أرمل، توفيت زوجته منذ شهور، ولديه من الأولاد ثلاثة، لا تقلقي فهم كبار إلىٰ الحد الذي يجعلهم يعتنون بأنفسهم، فلن تبذلي معهم جهدا كبيرا، هم فقط يريدون أمًّا مثقفة تستطيع أن تناقشهم وتعلمهم وتصادقهم، فأخي مشغول في عمله ولا وقت لديه لكي يمارس دور الأم والأب معا، إلىٰ جانب أنه رجل

وسيم وبه جاذبية وفي مركز مرموق، ليس بالكبير ولا بالصغير فهو في أواخر الأربعينات لكنه يبدو أصغر من ذلك بكثير.

صمتت كأنما تنتظر مني جوابا لكنني لم أجد كلاما أقوله واحمرت وجنتي خجلا وأصبحت نظراتي بلهاء لا تعبر عن شعور حقيقي، فقد أصبحت مشوشة، لا أرىٰ أمامي سوىٰ صورة أحمد الذي رأيت الحب في عينيه أضعاف ما كنت أتمناه ثم لفظني بغير سبب واضح أو مفهوم.

عندما لم تجد مني جوابا قالت:

- لو أردت أن تلتقي به فباستطاعتي ترتيب لقاء يجمع بينكما دون أن يحرج أحدكما الآخر، كأنه لقاء غير مرتب وإن لم يعجبك فلا ضير.

قلت لها وأنا ألملم شتات نفسي:

- إنك فاجأتني بهذا الأمر، وأخشىٰ أن أتسرع في أخذ قرار فيه.

الفصل الثاني عشر

مرت الأيام متشابهة وأنا اعتدت منذ زمن تشابه أيامي، أذهب إلىٰ العمل وأقضي فيه وقتا أحسبه جيدا، فإن لم يكن فيه ما يسعدني فإن فيه ما يلهيني عن همومي التي تجتاحني عندما أكون وحيدة، وإذا ما عدت إلىٰ البيت أغرق بين صفحات كتاب، أو أتقلب بين قنوات التلفاز العقيمة، أو أذعن لثرثرة جارتي العزيزة «مدام تهاني» بما لا يهمني من أخبار الجيران وجيران الجيران.

في هذا الوقت من العام بدأ الشتاء يلملم ثيابه بتأن وتسلل الربيع إلىٰ كل شيء، الناس يسعدون بقدوم الربيع، يفرحون بتفتح الأزهار واعتدال الجو، يعجبهم ذلك الزهاء الذي يغمر الأرض فنرىٰ الأشجار وقد اكتست باللون الأخضر الزاهي المتداخل مع ألوان الزهور المختلفة، رائحة الربيع تعبّق الهواء فتختلط رائحة الزهور مع رائحة الغبار، يتخفف الناس من ملابسهم الثقيلة القاتمة ويتألقون في الملابس الزاهية الملونة، يتحرر الأطفال من قيود الشتاء فتتحرر معهم حركاتهم وضحكاتهم، تتراقص الفتيات في تنانيرهن الحريرية الواسعة، يتلاعب النسيم بأطرافها فيتمايلن حيث مالت، يتحدث الناس كثيرا

عن فرحة الربيع، أما أنا! فلا، رغم أغنية سعاد حسني الشهيرة والمرحة «الدنيا ربيع والجو بديع»، أبحث في نفسي عن ذلك الزهاء فلا أجده.

حياتنا مقسمة إلىٰ فصول تشبه فصول السنة، لكن حياتي أنا فصل وحيد لم ينته، شتاء بارد وصقيع مستمر تجمدت علىٰ أعتابه كل منابع الأمل والحياة التي أرجوها، توقف الزمان بي هناك علىٰ باب غرفة قاتمة، مزينة جدرانها العفنة ببعض الزينة التي لم تغير من قبحها شيء، صخب في المكان وأناس كثيرون يرسمون علىٰ وجوههم ابتسامات سعيدة، تتألق عيونهم زهوا بذلك العريس المحترم صاحب المركز المرموق والمكانة العالية، لا ينقصه شيء ولا يعيبه شيء، يقولون أرمل ولديه طفلة، وما الضير في ذلك! فالعروس مطلقة ولديها هي الأخرىٰ طفلة، يظهر في المشهد وجهان لطفلتين، إحداهما تبتسم فرحا، تقف بجوار أبيها ممسكة يده، تنظر بزهو إلىٰ الحاضرين كأنما تقول بافتخار هذا الذي تحتفون بوجوده بينكم هو أبي، أما الطفلة الأخرىٰ فهي واقفة هناك في زاوية بعيدة، تقف مختبئة خلف باب الحجرة، تنظر بانكسار من طرف خفي، تمتلئ عيناها بنظرة حاقدة ويغمر قلبها شعور بالغيرة، تصب لعناتها علىٰ الجميع وتتمنىٰ لو أنزل الله عليهم صاعقة من السماء فتثأر لها، ولكن لا السماء تجيب ولا يهدأ قلبها.

يرتبط الربيع عندي بذكريات كانت يوما جميلة، الآن أصبحت مؤلمة، فيبدأ بعيد ينتظره البعض ويتجنبه آخرون، يملؤني فيه شعور اليتم، شعور تذوقت طعمه المر وما زال أبويّ علىٰ قيد الحياة، شعور قسم روحي نصفين أحدهما يحب والآخر يكره، أحدهما يحن والآخر ينفر، أحدهما يؤمن والآخر يكفر.

عاتبتني أمي مرة وكنت وقتها في الجامعة أنني لا أرسل إليها تهنئة بعيد الأم كما تفعل الفتيات وكما يفعل إخوتي الذين أنجبتهم من زوجها الذي انتزعها مني، ظنت أنها ستنال من قلبي الرهيف وتشعرني بالخجل فتجبرني علىٰ الاعتذار من تقصيري تجاهها.

أضحك من سذاجة هؤلاء الذين لا يرون في الكون إلا ما هو حق لهم فيتكلمون عن مغبة الظلم كأنهم لا يَظلمون، ويُحذِّرون من تضييع الحقوق وكأنهم بالحق معروفون، يُحذِّرون من التقصير والعقوق ويتحدثون كثيرا عن عقوق الأبناء وما ينتظرهم من سوء عاقبة، يخبروننا أن العقوق يعجل الله جزاءه في الدنيا قبل الآخرة، أقول في نفسي: «أنا فتاة عاقة، كيف سيعاقبني الله في الدنيا علىٰ هذا العقوق؟ وهل هناك عقاب أشد من هذا الذي أحيا فيه؟ أنا أعاقب علىٰ ذنب لا أعلم من الذي اقترفه، أهو أنا من حرمت نفسي من أحضان أبوي!».

عن أي عقاب يتحدثون؟ عن أي تقصير يعتبون؟ وعن أي عقوق يلومون؟ بل تراهم بأي حق يطالبون؟!

آه من هذا الإيمان الذي يتلبس الناس عندما يكون الحق لهم، يبدون قديسين أو أنبياء، يتكلمون بورعٍ يكاد يلامس القلوب، يجعلون من يستمعون إليهم في حالة من تأنيب الضمير، يذكرون كل واحد بتقصيره الكبير في أمر ما، أما هم فلا يجفل لهم جفن تجاه ما يقترفون من آثام!

عندما عاتبتني أمي ظنت أنني سأبكي خجلا وأطلب الصفح منها، لم تكن تعلم أنه خير لها ألا أذكرها مطلقا، قلت لها كلاما لا تحتمله أم من ابنتها الوحيدة، أقول ابنتها الوحيدة لأنني لا أعتبر أن من أنجبتهم بعد ذلك أبناء لها، فأنا وحيدة في كل شيء ورغم كل شيء، لي أب وأم ولكنني يتيمة، لي أعمام وأخوال لكنني بلا أهل أو عائلة، لي إخوة وأخوات لكنني وحيدة لا سند لي في الحياة، صرت وحيدة بإرادتي وبغير إرادتي فأحببت وحدتي وجعلت لنفسي منها ملاذا أختبئ فيه إذا داهمتني الخطوب.

كنت أرتب المسابقات والاحتفالات بعيد الأم، أعد الجوائز وأكتب شهادات التقدير بيدي للأمهات المثاليات، أكرمهن وأضع فوق رؤوسهن أكاليل الزهور، ثم أسأل نفسي: «هل كل الأمهات مثل أمي أم أن فيهم من تستحق؟».

سؤال لم أعرف له جوابًا رغم تلك النماذج الرائعة التي رأيتها وقد ضَحَّينَ بكل غال ونفيس من أجل أولادهن، ولكن بقيَ الخذلان

والغدر والأنانية يأكلون كل حنين ينمو بداخلي، بقيت صورة أمي ليلة الزفاف.

ظل عيد الأم خنجرا يمزق صدري كلما حلَّ، يوم كئيب، حزين، مليء بالنفاق والرياء، المفارقة الوحيدة وأظنها المضحكة، بل المبكية أنه أيضا يوم مولدي!

كنت أحتفل به عنوة، أطلب من الجميع تهنئتي، أطالبهم بالهدايا، أطالبهم بالسعادة من أجلي، ولكن لا أحد يجيب، فلا أجد احتفالا ولا أجد هدايا ولا أجد سعادة ممن حولي، فأهنئ نفسي بنفسي، أصنع لنفسي الحلوىٰ وآكلها وحدي، أشتري لنفسي هدية وأقول صديقتي العزيزة أحضرتها لي، عشت عمرا زائفا خاليا من كل شيء صادق أو حقيقي، وصدقت الزيف حتىٰ خشيت علىٰ نفسي من فرط الخداع.

في هذا اليوم نظمت المدرسة برنامجا إذاعيا لطيفا احتفلت فيه بالأمهات المثاليات، وكرمت الطلبة الفائزين في المسابقات، قدم التلاميذ عروضا جميلة وسعدوا بأمهاتهم وسعدنا بهم، انقضىٰ نصف اليوم في هذه العروض وبعد أن انتهينا ذهبت إلىٰ حجرتي فوجدتها مغلقة، انتبهت أنني لا أحمل لها مفتاحا منذ أن عملت في هذه المدرسة، فلقد اعتدت أن أجدها مفتوحة علىٰ الدوام، بحثت عن «دادة سعدية» التي اختفت فجأة، انتظرت في إحدىٰ الغرف مع زملاء آخرين حتىٰ هاتفتني ريهام.

- أين أنت يا عاليا؟

قالت بصوت قلق لكنه مملوء بالمرح، قلت لها بضيق:

- أنا في حجرة معلمي اللغة الإنجليزية.

ضحكت ريهام وهي تقول:

- ماذا تفعلين هناك، هل غيرت النشاط؟

ابتسمت رغم الضيق وقلت بعناد:

- مجبر أخاك، حجرتي مغلقة ودادة سعدية اختفت!

- تعالي، تعالي، لقد وجدنا دادة سعدية، أنا أنتظرك أمام الحجرة.

كان صوت ريهام مرحا كعادته، مفعم بانطلاقة الرضا والسعادة التي يستمدها القلب من نور الإيمان، شكرت الزملاء على استضافتي القصيرة وذهبت نحو غرفتي، كانت ريهام ومعها سلمى في انتظاري وباب الغرفة ما زال موصدا، من الجهة الأخرى أقبلت دادة سعدية التي اعتذرت مما حدث، عبثت بالباب فانفتح، دخلت بلا اكتراث كعادتي، تفاجأت بنيفين وإيدن ومعهما مصطفى بالداخل، وبمجرد دخولنا بدأ الجميع يصفقون ويغنون أغنية «أبو الفصاد» الشهيرة، وقفت مشدوهة لا أعي ما يجري حولي، الغرفة مزينة بالورد وأوراق الزينة، وقالب من «التورتة» الأنيقة موضوع على مكتبي في المنتصف وحولها أكواب من العصير وبعض الصناديق الصغيرة المغلفة بورق السلوفان الملون ملصق بكل واحد منهم بطاقة مكتوب عليها «عيد

ميلاد سعيد يا عاليا» وتحتها اسم صاحب الهدية، أمسكت نيفين بيدي وراحت تتمايل وتتراقص بي في المنتصف، استجبت لها وقلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي لا أصدق ما يجري حولي، كيف عرفوا يوم مولدي وأنا لم أخبر به أحدا، لم أهتم بذلك أبدا منذ أن التقيت بهم، لا أصدق أن هناك من فكر فيّ دون أن اطلب منه ذلك، عمل علىٰ إسعادي وأنا لا أعلم عن ذلك شيئًا، تركتني نيفين فاستلمتني ريهام ومن بعدها سلمىٰ، ومصطفىٰ وإيدن يصفقون في الخلف ويضحكون، انسابت دموعي رغما عني، عانقتني نيفين وهي تقول بصوت مبتهج ضاحك:

- تعشقين النكد يا عاليا، كفاكِ دموعا يا حبيبتي فاليوم يوم ميلادك!

زادتني كلماتها تأثرا فانتحبت، احتضنتني ريهام وضمتني إلىٰ صدرها، طوقتها بذراعي فضغطت علىٰ أضلعي بحنان، تبدل المشهد من السعادة والبهجة إلىٰ مشهد درامي بامتياز، استند مصطفىٰ بجذعه علىٰ أحد المكاتب وعقد ذراعيه أمام صدره وظل يتأملني، توقفت عن البكاء ومسحت دموعي واعتذرت منهم، شعرت برغبة كبيرة أن أهاتف أمي، وددت أن أقول لها كل عام وأنت بخير، تمنيت أن أرتمي بين أحضانها في هذه اللحظة، تمنيت أن أقول «أمي»!

عاد الابتسام إلىٰ وجهي، تهلل الجميع، طوق إيدن خصر نيفين بذراعه وقبلها، أمسك مصطفىٰ سكينا وبدأ في تقطيع التورتة تساعده

ريهام في توزيعها في الأطباق، أما سلمىٰ فانتحت بي جانبا وأخبرتني أنها حددت موعدا مع أخيها في السابعة مساء الغد في «كافيتريا» علىٰ النيل وسألتني إن كان ذلك مناسبا لي، ارتبكت ولم أعرف بماذا أجيبها ووجدتني بلا وعي أقول:

- مناسب.

قدم مصطفىٰ لي طبق الحلوىٰ مصحوبا بهدية أنيقة، وعندما هممت بفتحها طلب مني ألا أفعل ولا أفتحها إلا بالبيت، كاد الفضول يقتلني ولكنني وافقت، أعطتني ريهام هديتها، كانت مصحفا أنيقا، أما نيفين وإيدن فكانت هديتهما تنم عن ذوق راقي، ساعة يد أنيقة وكذلك غالية الثمن، أهدتني سلمىٰ كوبا أنيقا من مادة البورسلين منقوش عليه أول حرف من اسمي باللغة الإنجليزية، فرحت بالهدايا كثيرا ومر اليوم كأول يوم في حياتي أذق فيه طعم السعادة الحقيقي.

في البيت وقبل أن أبدل ملابسي جلست علىٰ السرير وأخذت أفتح هدية مصطفىٰ برفق، كنت حريصة أن أحافظ علىٰ كل شيء فيها حتىٰ الغِلاف، تتسارع دقات قلبي كلما اقتربت، علبة من القطيفة لونها أزرق داكن بداخلها سلسلة من الفضة في منتصفها قلب كتب عليه اسمي بحروف إنجليزية، كان واضحا أنها معمولة خصيصا لي، دون أن أشعر قبّلتها، نهضت وركضت نحو المرآة وطوقت بها عنقي، كانت أجمل شيء حدث لي في هذا اليوم، علا رنين هاتفي يخبرني بقدوم

رسالة، فتحتها على عجل، كانت من مصطفى رسالة من كلمتين يتبعهما علامة استفهام:

- هل أعجبتك؟

رددت:

- جدًّا!

ثم أتبعتها بوردة وأغلقت الهاتف، ارتميت على السرير أحلم بأشياء لا أدري ما هي ولكنني كنت أحلم وأنا سعيدة.

في اليوم التالي وجدت رسالة من سلمى تذكرني بالموعد الذي رتبته مع أخيها، قلت في نفسي

- لقد تسرعت!

هممت أن أرسل لها أنني أعتذر عن هذا الموعد لظرف خاص ولكنني عدلت عن الفكرة ورأيت من الأفضل أن أعتذر لها في المدرسة، ورحت أفكر في عذر منطقي، عندما وصلت انتظرتها في الحجرة خاصتنا لكنها تأخرت، خرجت أسأل عنها فالتقيت بمصطفى، ابتسمت، هو أيضا ابتسم، صافحني، قبض على يدي بحنان، كانت المرة الأولى التي أصافحه فيها، لم أعتد من قبل على هذه العادة ولكنني لم أتردد عندما مد لي يده، شعرت أنه لم يمدها من أجل المصافحة فقط، بل لتنتشلني من غياهب الوحدة التي أقبع فيها، تشبثت بها، سمعت صوتا يهتف بداخلي هذه اليد ملكك فلا تتركيها،

لأول مرة أشعر أن شيئا جاء من أجلي أنا، ملكي أنا، نعم شعرت أن مصطفىٰ لي وحدي، اختارني، جاء من أجلي.

مرت لحظة صمت تتعانق نظراتنا في فضاء فسيح لا يعكر فيه أحد صفونا، ارتبكت بعدها وجفلت أجفاني، سحبت يدي برفق وتلعثمت، بحثت عن كلمات فلم أجد، تذكرت هديته فشكرته من جديد، قال بحنو:

- هل أعجبتك؟

قلت مؤكدة:

- جدًّا!

مددت يدي تحت غطاء رأسي الذي يلتف حول رقبتي وتحسستها وأنا أقول:

- لولا الحجاب لأريتك أنني زينت بها عنقي.

رفع كتفيه مستسلما وخرجت الكلمات من فمه ممزوجة بضحك:

- من يعلم؟

لم أفهم معنىٰ عبارته لكن شيئا بداخلي يخبرني أنها أمنية ما، شردت قليلا فأخرجني من شرودي يسألني إلىٰ أين كنت ذاهبة، أخبرته أنني أبحث عن سلمىٰ، بعد تردد أخبرته بما دار بيننا، تغير وجهه رغم محاولته إبداء حياديته:

- وماذا ستفعلين؟

قلت بحيرة:

- لا أدري!

صمت هنية ثم قلت:

- سأعتذر لها.

- ستهربين!

قالها بإصرار.

- ليس هروبا ولكن أنا لا أريد!

- لماذا؟

قال بتحد، لم أجد جوابا فتلعثمت، قلت بعدها بعناد:

- لأنني لا أريد!

كنا قد دخلنا إلىٰ حجرة المكتب، جلست خلف مكتبي بينما ظل هو واقفًا مستندا إلىٰ المكتب المقابل لي عاقدا ذراعيه أمام صدره كعادته، بدا كأنما يفكر في أمر ما ثم سألني:

- كم عمرك يا عاليا؟

باغتني بسؤاله، لم أعد أهتم بسنوات عمري ولم أعد أحصيها، فكرت قليلا كأنما أتذكر كم عام عشت، قلت بصوت خفيض كأنما أحدث نفسي:

- سبع سنين ويوم واحد.

انتبهت أنه سمعني، حركت رأسي بعصبية وبحثت عن شيء لا أعلمه وأنا أقول بجدية:

- أتممت بالأمس ست وثلاثين عامًا.

لم يجب وظل ينظر إليَ، أكملت:

- أعلم أن العمر يجري وقطار الزواج فاتني، لكنني لم أعد أهتم لهذا الأمر، فما أنتظره لا يود المجيء، وأنا مللت الانتظار.

- وما الذي تنتظرينه يا عاليا؟

قال برفق، تنهدت باستسلام يائس وقلت وأنا أنظر إلىٰ عصفور أخضر حط علىٰ غصن الشجرة خلف النافذة:

- كنت أنتظر حبيبًا لكنه يأبىٰ المجيء!

سكت ولم يعقّب، وسكت أنا أيضا.

علمت بعد ذلك أن سلمىٰ أخذت اليوم إجازة عارضة، لم أجد مفرا من إرسال رسالة أعتذر فيها، مر اليوم الدراسي ولم تزل الرسالة لم تُفتح ولم تُقرأ، انتظرت طوال اليوم حتىٰ اقتربت الساعة من السادسة مساء، قلت في نفسي إن هذا اللقاء أراد الله إتمامه، حذفت الرسالة وبدأت أستعد للذهاب، في السابعة وخمس دقائق كنت واقفة علىٰ باب الكافيتريا، أحب الانضباط في المواعيد ولكنني وجدت حرجا في المجيء في الوقت المحدد لهذا الموعد بالذات، تلكأت بالخارج قليلا، قلت في نفسي ماذا لو تأخروا، جاءني إشعار برسالة جديدة من سلمىٰ، لم أفتحها، بعد خمس دقائق جاءني اتصال منها:

- أين أنت يا عاليا؟ نحن في انتظارك!
- أهلا سلمىٰ، خمس دقائق وأكون عندك.

قلت بارتباك وأغلقت الهاتف ووضعته في عمق حقيبة يدي، ارتعادة سرت في جسدي، وبرودة تخللت أطرافي فأصابتني بقشعريرة، دخلت علىٰ استحياء ورحت أبحث عنهما بعيني، علىٰ بعد عشر خطوات في الجهة اليمنىٰ وجدتها تلوح لي، كانت في مواجهتي، أما أخوها فكان موليا ظهره للقادم نحوهما، عندما اقتربت وقفت سلمىٰ واحتضنتني، وقف هو أيضا لاستقبالي لأن الذوق واللياقة يحتمان عليه ذلك، قدمته سلمي لي وقدمتني له، لم يمد يده واكتفىٰ بالترحيب بكلمات الترحيب المعتادة، التفت نحوه أرد التحية ولم أنتبه للاسم الذي قدمته لي أخته، التقت عينانا فكأن سهما أصاب كلينا في مقتل، تعلقت عيناي بعينيه ولم أتكلم، هو أيضا لم يتكلم ظل ينظر إليَ باندهاش وارتباك، بدا لمن يرانا أنها لم تكن المرة الأولىٰ التي نلتقي فيها، قالت سلمىٰ مستفسرة:

- ما الأمر؟! هل يعرف أحدكما الآخر؟

أفقت علىٰ سؤالها وكذلك هو، قال بهدوء:

- كيف حالك يا عاليا؟

قلت بارتباك:

- بخير.

تهللت سلمىٰ وقالت:

- من الواضح أنني أنا الغريبة بينكما!

انتبه أننا ما زلنا واقفين فقال وهو يتلفت حوله يرىٰ لو كان هناك من يلاحظنا:

- هل سنكمل كلامنا ونحن واقفين؟ تفضلي يا عاليا، اجلسي.

جلست ببطء ووضعت حقيبتي أمامي، تعلقت عيناي بمزهرية موضوعة في منتصف الطاولة التي نجلس حولها، قالت سلمىٰ مبتهجة:

- يبدو أن مهمتي أصبحت أسهل، بل إن وجودي لم يعد ذا فائدة، أرىٰ أنه من الأفضل أن أترككما معا.

قال بخبث كأنما يوافقها علىٰ ما عرضته من انسحابها:

- هكذا سريعا دون أن تشربي شيئا!

قهقهت بصوت عال قليلا وقالت:

- لقد كنت محقة، فوجودي لم يعد مرغوبا فيه.

ثم التفتت إليَ وقالت مداعبة:

- هل هذا رأيك أنت أيضا يا عاليا؟

ابتسمت خجلا ولم أستطع الرد فازداد ضحكها وقالت وهي تسحب حقيبتها:

- هـذا إجمـاع! سـأترككما معـا ولكـن لا تنسـيا أن تخـبراني بالتفاصيل.

انحنت عليّ وقبلتني في وجنتي وانصرفت داعية لنا أن يوفق الله بيننا، مرت دقائق من الصمت لا أدري ماذا أقول فيها، هو أيضا ظل صامتا ينظر إليّ وما زالت أمارات المفاجأة بادية علىٰ وجهه، ظل صامتا ينتظر ماذا أقول له، بعد صراع بين لساني والكلمات أذعنت لها وأطلقت سراحها فخرجت هادئة رصينة، ولأول مرة يسمع صوتي منذ سنين، قلت:

- كيف حالك يا حازم؟

الفصل الثالث عشر

عدت إلىٰ البيت أحمل في صدري قلبا هادئا ووجها جامدا لا يحمل أي دلالة علىٰ حدوث لقاء للتو كان مرتقبا منذ سنين، سنوات تمنيت فيها أن يتم ورغم ذلك كنت أخشاه، أعددت العدة لأجله وانتظرت بقلب مليء بالخوف والأمل، ممزق بين العفو والانتقام، رسمته في خيالي مرات ومرات بصور عديدة، جعلته مصادفة مرة وصنعته مرات، جعلت فيه الكلمة الأولىٰ لي والأخيرة أيضا لي، رأيت حازمًا يركع أمامي يطلب الغفران، رأيته يبكي ندما ويتوسل أسفا، ينضح جبينه من الخجل، ترتجف يداه كطالب ينتظر نتيجة امتحان صعب، ورأيتني أغفر له، أضعف من جديد، أقول بكل استسلام مهما فعلت يا حازم سأظل أحبك.

سنين مرت لم أحلم إلا به، لم أتمن غيره، كنت ألوم نفسي وأقول هو علىٰ حق، كيف يحب فتاة مثلي! فتاة تائهة، ضائعة، تكره الحياة ويكرهها العالم، لماذا يحبني هو؟

دخلت من الباب فوجدت خطابا جديدا ملقىٰ علىٰ الأرض، عاد أحمد إلىٰ أسلوبه الأول، فتحت الخطاب بلا مشاعر وبلا لهفة وبلا

أمل، الفضول وحده هو الذي حملني علىٰ الاهتمام، الفضول هو الذي حركني تجاهه، فتحته بيدين ثابتتين وعينين غير آبهتين بما هو مخبأ بداخله، الظرف كان أبيض، والورقة بداخله كانت بيضاء أيضًا، في المنتصف منها كلمات قليلة عددتها، عشر كلمات لم تزد «زوجتي علمت بما بيننا وهددت بالفضيحة، خفت عليك لذلك ابتعدت»، لا أدري لماذا عددتهم، أهو الفراغ؟! أهو الأسف علىٰ ما مضىٰ؟! أم هي المقارنة بما كان من قبل وما نحن عليه الآن!

وقعت كلماته علىٰ صدري كوقع ريشة أرجحها الهواء حتىٰ خارت قواها وسقطت علىٰ الأرض، لم أهتم بمعرفة التفاصيل، لم أتساءل كيف عرفت؟ وكيف أجاب؟ كيف كانت ثورتها؟ كيف هدّأها؟ كيف أعاد إليها الثقة من جديد؟ لم أهتم بالفضائح ولا بأحمد أو بزوجته، فليفعلوا ما شاءوا أو يذهبوا إلىٰ الجحيم.

لم أبدل ملابسي، استلقيت علىٰ السرير وحذائي ما زال قابضا علىٰ قدمي، فكرت في اللقاء المنصرم، ابتسمت ساخرة ثم اتسعت ابتسامتي وسرعان ما تحولت إلىٰ ضحكة عالية، ضحكة حزينة كئيبة، لم أسمح للدموع أن تجري رغم استعدادها الكامل خلف الأهداب، أعدتها من حيث أتت، ساعة ونصف أجلس أمام حازم لا أجد ما أقول، هو أيضا لم يجد ما يقول، تبدد الكلام الذي كان بيننا يوما، تلاشت الأحداث، وتسربت الذكريات، ما عاد معنىٰ لعتاب أو لوم أو تقريع.

- لم تكن يوما لي فلذلك رحلت.

قلت بإذعان وتسليم، سكتُ، عبثت أناملي بأطراف المفرش المزينة به الطاولة التي بيننا، نظر إليّ طويلا، قال كمن أراد أن يقدم آخر حلوله لحل مسألة معضلة تأبىٰ علىٰ البيان

- لعل الله أراد أن يجمع بيننا في زمان غير الزمان ومكان غير المكان.

- وشعور غير الشعور.

قلت معقبة بنبرة ساخرة بعض الشيء، فاجأته نبرتي، أصابه إحباط، أراح يديه علىٰ مسندي المقعد الذي يجلس عليه، أغمض عينيه كمن يسترجع ذكرىٰ عزيزة لديه، ابتسم نصف ابتسامة وقال بهدوء:

- عندما أخبرتني جميلة أنك حاولت قتل زوج أمك خفت منك، قلت ما الذي يجعلني أعلق مصيري بمصير فتاة تحوم حولها المصائب، تعيش في مستنقع من العلاقات المعقدة غير المكتملة، أعلم أنني كنت قاسيا، لكنك أخطأت وكان يجب عقابك، فكرت حينها أن ابتعادي عنك هو العقاب الناجع الذي سيجبرك علىٰ العودة من تيهك الذي أغرقت فيه، ابتعدت دون أن أسأل ما الذي حدث وما الذي دفعها لذلك، لم أفكر فيك كمجني عليه قبل أن يكون جانيا، فكرت في مستقبلي وليذهب أي شيء إلىٰ الجحيم.

- ولأذهب أنا إلىٰ الجحيم!

قلتها بغضب، فحرك يديه نافيا وقد أزعجته عبارتي، قال مؤكدا وجهة نظره ونافيا ظنوني:

- لا، لا، أؤكد لك أنني لم أفكر فيك بهذه الطريقة، فكرت في نفسي وفي إنقاذك حتىٰ لو كان ذلك علىٰ حساب حبنا.

- آها، تريد أن تظهر بثوب المضحي!

قلت بسخرية وازدراء.

أزعجته سخريتي، فقال بحدة:

- لست بحاجة إلىٰ تبرير ما حدث، أنت أخطأت وكان علىٰ أحد أن يعيدك إلىٰ صوابك، وأنا رأيت أنني قادر.

سكت سكوتا غاضبا لم أقطعه، عدت بذاكرتي إلىٰ ذلك اليوم المشؤوم، يوم أن فكرت أن أنتقم لنفسي ولكن علىٰ طريقتي، لم أفكر في القتل مطلقا، كنت أفكر في أي انتقام، أي إيذاء، أي ألم أحدثه لهؤلاء الذين يقتلونني في كل يوم.

عادت أمي مع زوجها وأبنائها من الخارج في إجازتهم السنوية، إجازة امتدت شهرين، طلبت مني أن أقضيها معها، في البداية رفضت ولكنها ألحّت، كنت غريبة بينهم، لم يحبوني، حتىٰ إخوتي من أمي كانوا يحبون أختهم من أبيهم أكثر مني، كان بينهم أسرار وذكريات، ومواقف مضحكة وأخرىٰ حزينة، أما أنا فلم يكن ثمة تاريخ يجمع بيننا، لها حجرتها الخاصة ولهما حجرة أخرىٰ، لم يكن لي مكان، لم

تقبل هي أن أشاركها حجرتها وكذلك أنا ما كنت لأستريح معها، شاركت أختي في سريرها، كنت أسمع زفرات التأفف والضجر منها وأنا أتصنع النوم، في البداية كنت أحزن، تحول حزني بعد ذلك إلىٰ غضب ثم إلىٰ عناد، أقسمت أن أجعلهم جميعا يندمون علىٰ دعوتي ويتمنون ذهابي، حتىٰ جاء اليوم الذي زارتني فيه جميلة، أخبرتني أنها مرضت منذ يومين وكادت تموت بسبب تناولها دواء عن طريق الخطأ، حكت لي عن أحداث مضحكة وقعت لها بسبب هذا الدواء، تألمتْ لكنهم كانوا يضحكون من معاناتها، سألتها عن اسم الدواء فأخبرتني، صارحتها بما فكرت فيه أعجبتها الفكرة قالت:

- دعينا نسخر منهم ونضحك عليهم.

في اليوم التالي أحضرت لي ما تبقىٰ لديها منه، فكرت بمن أبدأ، واقترحت أن أبدأ بابنة زوج أمي، قلت لها: لا، بل سأبدأ بزوج أمي نفسه.

كانت الفكرة مجرد مزحة، مزحة سخيفة في حقيقتها انتقام، انتظرت الوقت المناسب ووضعت له العقار في الشاي أو العصير، لا أذكر!

مرض الرجل، في البداية أصابه إسهال شديد، تطور الأمر حتىٰ دخل المستشفىٰ ومنه إلىٰ الرعاية المركزة، لا أدري كيف انكشف الأمر، كيف عرف الجميع أنني أنا من فعلت، بعدما أفاق وعاد إلىٰ البيت طردني منه، قال لولا أمي لسلمني إلىٰ الشرطة، لم تستطع أمي

الدفاع عني، لم تقدر علىٰ مواساتي ولـم تجـرؤ كـذلك علـىٰ تقريعـي، التزمتْ الصمت، صمت آسف حزين، صمت مكبل لا يقدر علىٰ فعل شيء.

أعادني من شرودي بسؤاله:

- لماذا فعلت ذلك يا عاليا؟

نظرت إليه بحقد، سكت هنية ثم قلت بازدراء:

- كان الأجدر بك أن تسألني هل فعلت ذلك حقا يا عاليا؟

قال بارتباك مصطنع:

- أيا كان السؤال أنا أريد ان أعرف منك الحقيقة.
- هل يهمك هذا؟

قلـت بنـبرة هادئـة محايـدة، فأومـأ برأسـه مؤكـدا وأكـد كـذلك بالقول، قال:

- طبعا يهمني، هل لديك شك في ذلك؟
- أنا لا يهمني أن تعرف الحقيقة.

قلت بتحد وأنا أضغط علىٰ كل كلمة علىٰ حدة لأؤكدها.

انتهىٰ اللقاء علىٰ لا شيء، لم أسأله كيف ماتت زوجته، لم أسأله عـن أولاده ولا لمـاذا يريـد الـزواج ولا مـاذا سـوف يفعـل لأنـني حتمـا سأرفض الزواج منه، انتهىٰ اللقاء بعدما تسيد الصمت الموقف مدة لم نعرف قـدرها، انتبـه إلـىٰ صـمتنا الطويـل فـأراد أن ينهـي اللقـاء بطريقـة

لائقة، رفعت عنه الحرج واستأذنت، عرض اصطحابي إلىٰ البيت لكنني رفضت، ذهبت دون سلام أو وداع أو وعد بلقاء جديد، ذهبت وطويت صفحته إلىٰ الأبد.

أيام قليلة بقيت علىٰ الحفل الختامي للعام الدراسي، الجميع مستعدون كي تظهر المدرسة بما يليق بمكانتها ودورها، أعلنت نيفين عن حملها الذي كانت تنتظره بفارغ صبر، هنأها الجميع، تساءلوا فيما بينهم ماذا ستكتب في خانة الديانة لطفلها، تغامزوا وتلامزوا عليها لكنهم في النهاية هنأوها، ريهام ما زالت في صراعها مع أبويها، لا ترضىٰ بأي عريس يتقدم لها، تريده متدينا صاحب لحية طويلة وجلباب قصير، أقول لها:

- ليس بالشكل ولا بالزي يا ريهام.

تقول بورع:

- لكنه اتباع لهدي النبي يا عاليا.

لا أجد ردا، أصمت من جديد، أبحث عن مصطفىٰ فأجده هو أيضا يبحث عني، شيء ينمو بيننا علىٰ مهل، شيء يتسلل إلىٰ كل كياني فيحكم قبضة حانية عليه، يقول بافتتان:

- عاليا، هناك شيء!

أسأله:

- ماذا؟

يصمت، يقول بعد صمت:

- ليس الآن.

أنتظر وكلي أمل.

سلمىٰ لم تأخذ مني موقفا معاديا، ظلت كما هي عندما التقينا أول مرة، لا شيء يجمع بيننا سوىٰ العمل وعلاقة زمالة لم تتعد حدود ذلك، أحترمها وتحترمني، نتعاون لصالح العمل ولا شيء غير ذلك.

الفصل الأخير

أشرقت شمس الرابع عشر من نيسان (أبريل) وأشرق معها شعور جديد ملأ وجداني، أمل بدأ يلوح نوره في الأفق من بعد عتمة أطبق ظلامها علىٰ روحي لسنوات طويلة.

أصبح مصطفىٰ ضيفا دائما علىٰ أحلامي، عندما أستيقظ من حلم كان فيه أرىٰ الدنيا بلون غير الذي اعتادت عليه عينيّ منها، أراها كأوركيدة بيضاء تزين صباحي ويملأ صدري شذاها العطر، أبدأ صباحي بابتسام وأختمه بحلم جميل، اكتشفت أن للحب بعد الثلاثين مذاق آخر غير الذي كنت عرفته من قبل، مذاق نتأنىٰ في الاستمتاع به وتمييزه، يمس شغاف القلوب مسًا هادئا ورزينا، يتضافر فيه هدوء العقل وجنون القلب وعمق الشعور، الجنون فيه يكون حالة نختارها ونقودها نحن فتسعدنا لا يقودنا هو فيغرقنا في بئر من الأخطاء التي لا حلول لها إلا الفراق، الحب بعد الثلاثين توضع بذرته في القلب ونرويها بهدوء وتأن، كفلاح خبير يعرف متىٰ تطرح شجرته أطيب الثمار، يرعاها بكل اهتمام وخبرة، يحسب في عقله متىٰ تزهر ومتىٰ تطرح أول ثمارها ومتىٰ تنضج فتكون صالحة للقطاف، ينتظر

باطمئنان الواثق أنها لن تخذله ولا تخذله، ولقد ألقىٰ مصطفىٰ بذور حبه في أرض قلبي الخصيبة والتي كانت تنتظر منذ زمن، أعددتها سنوات وسنوات للحرث لكنها لم تنبت، كانت كالأم التي تعرف وليدها الذي أخذوه من بين يديها وعيناها لم تكن قد رأته بعد، تعرفه فقط بروحها وقلبها، وبعدد اللحظات التي امتزجت فيها روحه بروحها، تعرفه بلحظات السعادة والألم، انتظرته ولم ترض بغيره بديلا، كذلك قلبي انتظر، لم يفلح أحمد في استنبات زهوره في خصيب أرضي التي كانت قاحلة فسرعان ما ذبلت فسائل حبه وماتت، أما الآن، البذرة صارت شجرة، تمددت أوراقها فظللت علىٰ روحي، حمتها من هجير الوحدة وجحيم الخذلان.

تمطيت في الفراش بتكاسل ووخم، تذكرت حلم الليلة فابتسمت، دب النشاط في أوصالي فجأة فأزحت الغطاء ونهضت، كانت حركاتي كخطوات راقصة بالية تستعد لعرض مهم، رحت أحتضن الأشياء وأقبلها، أستمع إلىٰ موسيقىٰ تنبعث من أعماق روحي فأتراقص علىٰ أنغامها، كان الحفل سيبدأ في السادسة مساء والساعة الآن الثامنة، رحت أجدُّ الخطىٰ وأستعد للنزول فعلينا أن نكون موجودين جميعا في العاشرة لترتيب كل شيء، لم تكن لدي رغبة في تناول طعام فاكتفيت بفنجان قهوة، في الطريق هاتفتني ريهام لتخبرني أنها لن تحضر الحفل، كنت أعرف أنها لن تأتي، رغم ضيقي التمست لها العذر.

وجّهتُ كل تركيزي على الاستعدادات التي نقوم بها، الجميع يعمل على قدم وساق والمديرة من ورائنا تشحذ الهمم وتبارك الخطوات، عندما نعمل بجد يمر الوقت سريعا، ساعتان ويبدأ الحفل، عدت إلى البيت لأبدل ملابسي وأرتدي ثوبا يليق بالمناسبة، لم أهتم من قبل بما أرتدي في أي مناسبة، فملابسي كلها صالحة لأي وقت ولأي ظرف، اليوم الأمر يختلف تمنيت أن أبدو في أبهى صوري، نظرت في المرآة طويلا، ما زلت أحتفظ بجمال يميزني ويلفت الأنظار، ليس جمالا مبهرا ولكنه مقبول، بحثت في خزانة الملابس عما يليق، تنورة من الحرير الأزرق منقوشة بورد صغير بيضاء، فضفاضة تتراقص مع وقع خطواتي المتمايلة، ارتديت فوقها بلوزة من الحرير اللامع بيضاء بأكمام طويلة ومزينة بـ «فيونكة» حول الرقبة، وغطاء رأس أزرق لامع أيضا، وضعته على رأسي ولففت أطرافه حول رقبتي وثبّتُها ببروش من الكريستال أسفل الذقن، زينت وجهي ببعض المساحيق الخفيفة كي تخفي ذلك الشحوب الملازم لي.

أبدى مصطفى انبهاره بمظهري الذي لم يعتده مني من قبل، لم ينطق بكلمة ولكن نظرات الإعجاب قالت كل ما تمنيت سماعه منه بلا كلمات أو صوت، ابتسمت خجلا وانتشيت ثقة بالنفس، لقاءاتنا الليلة كانت سريعة وخاطفة بين الفقرات.

كان حفلا رائعا، قدّم فيه الطلبة عروضا أذهلت الحاضرين ونالت إعجابهم، كُرِّم كل من شارك في الحفل وكنت أنا ومصطفىٰ ممن تم تكريمهم.

بعد انتهاء الحفل عرض عليّ أن نحتفل معا احتفالا خاصا، لم أعترض بل كنت في أشد السعادة والإقبال، عرض أن نذهب إلىٰ مكان فخم لكنني اخترت الجلوس أمام النيل، أحب البساطة والحرية، لا أحب التقيد بالأماكن غالية الثمن والتي تكون فيها كل حركة أو التفاتة بحساب، جلسنا معا علىٰ الكورنيش يحيط بنا أناس يشبهوننا، أسر بسيطة وأطفال يلهون، وعشاق يسرقون من الحياة لحظات سعادة، جلسنا تحت شجرة عتيقة ننظر إلىٰ النهر، تتلألأ أضواء المدينة علىٰ صفحته المعتمة، السماء من فوقنا سوداء حالكة، خبأتْ المصابيح المتناثرة علىٰ الأرض ما برق فيها من لؤلؤ منثور، صمتٌ صاخبٌ قطعه مصطفىٰ بكلمات قليلة، قال برضا:

- كان حفلا رائعا.

قلت:

- نعم.

سكتنا قليلا، تلفّتَ حوله يبحث عن شيء، رأي بائعة الذرة المشوي علىٰ مبعدة منا، قال باسما:

- تأكلين ذرة؟

قلت مرحبة بالفكرة:

- يا ليت.

ذهب وعاد بلفافتين، بدأت أقضمها علىٰ استحياء، كانت ساخنة، أخذ هو قضمة وراح يمضغها متأملا النهر، قال بهدوء:

- عجيب أمر الدنيا!

قلت باستغراب بعد أن التقطت ثناياي حبة ذرة وحيدة ورحت أحركها في فمي

- ما العجيب فيها؟

- هل تذكرين يوم أن اتصلت بك أبثك همومي؟

نظرت إليه باهتمام مضطرب كمن ينتظر كلاما خطيرا، قلت في نفسي: «لماذا يتذكر نشوىٰ في هذه الليلة بالذات؟ كدت أوقن أنه لم يحلم بي كما أحلم به»، لم أجب واكتفيت بالنظر في وجهه، هو أيضا لم ينتظر مني ردا وأردف قائلا:

- بحثت في كل من أعرفهم حينها فلم أجد غيرك أزيح أمامها ستائر روحي وأجرّد مشاعري من كل ما يسترها عن ملاحظة الآخرين، لم يكن الأمر مرتبطا بالأكثر حكمة أو أمانة لإسداء النصيحة في معضلة كتلك التي قصصتها عليك حينها، ولكن كان هناك أمر آخر، أمر خاص باقتراب الروح وانسجام الأفكار، شيء عجيب جمع بيننا، لم يكن تشابها أو اتفاقا في وجهات النظر، بل هو اختلاف، اختلاف آلف بين قلوبنا ألفة وصلت حد التلاحم والانسجام، اختلاف تكامل يكمل فيه أحدنا الآخر،

أنت تعرفين يا عاليا أن النفس البشرية مليئة بالمتناقضات، أنا وأنت نشبه تلك النفس الواحدة، نفس انقسمت إلىٰ جسدين نشأ كل منهما بعيدا عن الآخر ولكن قوىٰ الجذب التي بين الشيء ونقيضه كانت أقوىٰ منهما فاجتمعا، نعم يا عاليا، فأنت لم تأتي إلىٰ هذه البلدة الكبيرة المزدحمة بكل صنوف البشر بإرادتك ولا بتخطيط منك ولكنه نداء خفي سكن في أرواحنا ورسم لنا طريق اللقاء فالتقينا.

قلت بانبهار:

- كلامك يعجبني، يتسلل إلىٰ أعماقي فيصادف شيئا بداخلي يدفعني للتصديق والإذعان له.

سكتُ هنية ثم قلت بدفء:

- أنا حلمت بك.

أضاء وجهه وبرقت عيناه، قال بتلهف:

- متىٰ، متي حلمت بي يا عاليا؟!

قلت بخجل وأنا أنظر أسفل قدمي:

- ليلتها.

اتسعت ابتسامته وقال كمن عثر علىٰ كنز كان ضائعا:

- نعم، أرأيت! أنا أيضا حلمت بك ليلتها، كان حلما رائعا، يختلف عن كل الأحلام التي رأيتها في حياتي من قبل، صدقيني لو قلت لك إنني لا أذكر أي تفاصيل فيه ولكنني ما زلت أحيا

بداخله أو يحيا هو بداخلي، أتحرك وأتكلم وأروح وأجيء من خلاله، ذلك الحلم يا عاليا ما زال يأسرني، يوجّهني، يرسم لي الطريق فأسير علىٰ هداه، أشم رائحة الهواء التي تخللت أنفاسي فيه، أرىٰ وجهك ليس واضحا ولكن كبدر أضاء عتمة ليلي، اسمك يتردد ليس علىٰ مسامعي ولكن أسمعه مع نبضات قلبي، لم يكن حلما عاديا يا عاليا، كان إشارة أو علامة، كلما تذكرته ترقص روحي انتشاء!

كان يتكلم بانبهار وإقبال علىٰ الحياة، عيناه اللامعتان تقولان أكثر مما ينطق بلسانه، نظر إليَّ فرحا وقال:

- وأنت يا عاليا قولي لي ماذا رأيت.

توردت وجنتي وضاع الكلام مني، قلت بابتسامة حيية:

- كان حلمي يشبه حلمك، لا أحداث فيه ولكن إحساس ملك كل وجداني، صور باهتة تروح وتجيء أمامي فأبتسم، يقشعر لها بدني ويصيبني ارتعاد لذيذ، كالارتعاد الذي يصيبنا في الصباح الباكر بعد ليلة صيفية حارة، جئتَ في حلمي بغير تفكير مني أو إرادة، جئتَ لأنك لي وأنا لك، نحن الاثنان خلقنا ليسعد أحدنا الآخر، ليطمئن أحدنا الآخر، ليكمل أحدنا الآخر.

- ما اسمه يا عاليا؟

سألني بغتة فأُخِذْتُ من السؤال، أجبت علىٰ سؤاله بسؤال وكان الارتياب باديا علىٰ وجهي

- من ذا؟

اجاب بصوت حالم وهادئ:

- ذاك الذي نما بيننا بغير إرادة منا؟

تنهدتُ اطمئنانا وقلت بدلال:

- سمّه لي، فأنا لا أعرف.

ابتسم وقال كمن يعلم طفلا شيئا جديدا:

- اسمه الحب!

تخضب وجهي ورمشت عيناي، التفتُ إلىٰ الجهة الأخرىٰ، رأيتُ عجوزان ما زال الحب باسطا جناحيه عليهما، يضع أحدهما الطعام في فم الآخر، لا أدري أهو حب زائد من الخادم أم عجز من المخدوم، المهم أن الرضا كان باديا علىٰ وجهيهما، بحثت في ذاكرتي عن مشهد كهذا فلم أجد، الحب في حياتي من قبل كان ذنبا أو عارا لا بُدَّ من تجنبه، تذكرت أمي التي أحبتْ أبي فخذلها، وأحببتها فتخلتْ عني، تذكرتُ أول حب بُعث ومات في قلبي ولم يعلم عنه أحد شيئا، تذكرت جميلة وحازم، تذكرت...

- هوهووو! إلىٰ أين ذهبت؟

انتبهت إلىٰ كلماته فتوقفت عن التفكير وعدت إليه ولكن شيئا انطفأ بداخلي، قلت بهدوء منكسر:

- أنا معك.

- إلىٰ أي مدىٰ؟

لم أفهم سؤاله، فسألته بجدية:

- ماذا تعني بسؤالك؟

قال شارحا:

- أقصد إلىٰ أي مدىٰ ستكونين معي.

لم يبد عليّ الفهم فأكمل موضحا:

- أنت الآن معي بجسدك وروحك وقلبك، ولكن إلىٰ متىٰ ستظلين معي هكذا، وما الكيفية التي ستكونين معي بها؟

سكت قليلا ينتظر ردة فعلىٰ فلم يجد فأكمل نافد الصبر من غبائي المصطنع:

- يعني أنا أريدك معي يا عاليا إلىٰ نهاية العمر، أريدك توأم روح ورفيقة درب، أريدك زوجة لي وأما لأولادي.

علتْ دقات قلبي وتسارع النبض في عروقي، تعرّقتُ خجلا وخوفا، فحلم كل فتاة أن يكون لها بيت وعائلة والذي حرمت منه سنوات وسنوات بدأ يتجلىٰ أمامي، بدأت تفاصيله تتضح وما عليّ سوىٰ السير في طريق تنفيذه، قلت في نفسي: «لا وقت أمامك يا عاليا للتفكير أو التردد، قليلات هن من يجدن الحب والزواج معا في آن واحد ورجل واحد، أنت تحبين مصطفىٰ وهو كذلك يحبك، ليس حبا طائشا أو عابرا ولكنه حب رصين تجذّرَ في نفسيكما علىٰ مدار سنوات تعارفكما دون أن تعلما، كل واحد منكما كان يحب الآخر دون أن

يصارح قلبه بذلك، حتىٰ جاءت الجذوة التي أشعلت لهيب العشق في قلبيكما، اقبلي يا عاليا فالعمر يجرىٰ وما تبقىٰ منه لن يزيد عما مضىٰ».

حلمت بفستان الزفاف وخاتم الزواج، تراقص قلبي علىٰ أنغام أغنية «يا دبلة الخطوبة»، أغمضتُ عيني ورحت أحلم وابتسامة ثغري تتسع انتشاء، قاعة صاخبة تضج بالحضور، موسيقىٰ هادئة تخدّر الأعصاب، روائح زكية تعبّق المكان، وأنا ومصطفىٰ كبدر انشق منذ سنين ليجتمع الآن، من بين الوجوه لاح لي وجه جميلة، تنظر إليّ بسخرية وازدراء تعالت ضحكتها الماجنة وهي تقول: «ماذا ستقولين لزوجك يا عاليا؟».

انتفضت من أحلامي وما زال مصطفىٰ يتكلم، لا أعي ما يقول، أعادتني جميلة ثانية إلىٰ واقعي البغيض وذكرياتي المؤلمة، لم ترحمني جميلة يوم أن لجأتُ إليها باكية ومحطمة الآمال، تبددت أحلام المستقبل مثلما تحطم ماضيّ من قبل، صفعتني بنظراتها وكلماتها الموجعة، وصفتني بالعاهرة، لم أجد بدا من الدفاع عن نفسي، فلا مكان لمن يعترف بأخطائه في مجتمع يتنفس خطيئة ولا يرحم أحدًا.

سببتها، لعنتها، قلت لها إنها هي وأبيها العاهران، ابتسمت بازدراء وقالت:

- أبي الذي أردتِ أن تأخذيه مني ومن أمي؟

اتسعت حدقتاي من الذهول، يرتكب الإنسان في حياته حماقات وهو يظن أن لا أحد يفهم ما يفعله، ارتبطت بجميلة ارتباطا مليئا بالمتناقضات، لا أستطيع الابتعاد عنها وفي الوقت ذاته أتمنىٰ ألا أراها، لها أب وأم وإخوة وليس لي في الحياة من ذلك شيء، اعتبرت نفسي فردا من أفراد أسرتها، تعلقت بأبيها حد الوله، لم أفهم حينها حقيقة تعلقي به، ظننته حبًّا كحب النساء للرجال، حلمت به كرجل يملأ حياتي، لم تكن هناك محاذير في لقاءاتنا، أبيت لديهم ليال طويلة، اقتربت منه واقترب مني، بادلني حبا بحب ورغبة برغبة، لم أكن أعي أن هدفي وقتها أن يكون لي أنا وأن تُحرَم منه جميلة كما حُرِمتُ أنا من أبي، كنت صغيرة وساذجة، وكان هو كبيرا وماكرا، لم يملّ طول محاولاته أن يظفر مني بما يرجوه الرجل من المرأة، وأنا لم أبخل عليه ببعض اللمسات والقبلات التي لا تروي ظمأ ظامئ، وكنت كلما تمنّعتُ يزداد تعلقا ورغبة، ويزداد تحكمي وسيطرتي عليه، كنت أنتقم لنفسي من جميلة فكان لا يرضىٰ بشيء تطلبه هي منه إلا بإذني، حتىٰ جاء اليوم الذي طلب فيه المزيد، وعندما تمنّعتُ تبدّل حاله، خِفتُ أن يذهب كما ذهب كل من حولي، استجبت بحذر حتىٰ تمكن مني وسرعان ما لفظني، أدركت قدر حماقتي، وفهمت أن الشر لا يحرق إلا من بدأ به، خسرت كل شيء في الحياة ولم تبق لي إلا روح آثمة حاولت إزهاقها مرات ومرات لكنها أبت إلا التشبث بالحياة، ازدت كرها وحقدا علىٰ جميلة التي لم تلق حتىٰ اليوم جزاء ما أجرمتْ في حقي، فهمت بعد ذلك أن المجرم الحقيقي هو ذلك الضعف والحقد

الذي ملأ قلبي، دمّرتني جميلة وكان سلاحها ضعفي واستجابتي لها، فهمت ذلك بعدما كرهت كل معنىٰ للحياة، وخسرت كل شيء، كل شيء!

انتبهت إلىٰ صوت مصطفىٰ وهو يقول:

- ماذا قلت يا عاليا؟

فهمت أنه ينتظر ردا مني علىٰ طلب الزواج الذي عرضه عليّ منذ دقائق، بحثت عن كلمات فلم أجد، بحثت عن أعذار أو كذبا أتعلق بحبائله فأهرب منه فلم أجد، بحثت عن السعادة التي كانت ملء قلبي منذ ثوان فلم أجد، استجمعت الحروف وقلت بصوت واهن كسير:

- مصطفىٰ، قبل أن أجيب طلبك أريدك أن تعرف شيئا.

سكتُ أنتظر رده فلم يرد ولم يزد عن أنه أخذ ينظر إليّ مقطبا جبينه استعدادا لتلقي أمر لا يعلم مدىٰ خطورته، استجمعت قواي وقلت له بصوت حزين:

- أنا أيضا لدي سر.

تمت